المدرسة المتطورة

تأليف

وليم س. فيفست

يول ر. مورت

بجامعة كولومبيا بنيويورك

ترجمة

د. محمد الهادي عفيفي

جابر عبد الحميد جابر

تقديم ومراجعة

د. عثمان شاكر

الكتاب: المدرسة المتطورة

الكاتب: وليم س. فيفست، يول ر. مورت

ترجمة : د. مُحَمَّد الهادي عفيفي، جابر عبد الحميد جابر

تقديم ومراجعة : د. عثمان شاكر

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

المدرسة المتطورة / وليم س. فيفست، يول ر. مورت, ترجمة : مُحَمَّد الهادي عفيفي، جابر عبد الحميد جابر ، تقديم ومراجعة : عثمان شاكر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٠٢٢ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٩٨٨٤ / ٢٠٢٠

المدرسة المتطورة



نشر هذا الكتاب تحت عنوان

A Look
at our Schools

by
Paul R. Morl
&
Willian. S. Vincent

تقديم

لم يعد مفهوم الإدارة المدرسية مُنحصراً في تعريفه ودوره التقليدي، بل أصبح مفهوماً واسع النطاق وأصبح يشمل الإدارة التربوية والإدارة التعليمية والإدارة المدرسية كنسق على شكل حلقات مترابطة ومتكاملة، وكل مكونات ذلك النسق وتلك النطاقات بداخل كل حلقة متصلة مع بعضها البعض وتخدم أهداف منظومة التربية والتعليم كجسد كلي متماسك الأطراف.

ويصب مفهوم الإدارة الحديث نحو تعزيز الخدمات المقدمة وتطويرها والرفع من مُخرجات أو مُنتج المنظمة أو المؤسسة. وفي هذا الصدد، على سبيل المثال، تقوم المدرسة الحديثة المتطورة ببناياتها وبنيتها التحتية وأطرها ومناهجها وإدارتها على أصول علمية تساهم في تحقيق الأهداف المرسومة وتوجه العمل في المؤسسة (أي المدرسة) نحو الوجهة الصحيحة مراعية في ذلك كل معايير الجودة الشاملة وتطبيقاتها وشروط السلامة كي يتم العمل على الوجه السليم والصحيح ويضمن سلامة ونمو الفرد جسدياً وفكرياً. ولذلك لا يمكن الحديث عن الإدارة المدرسية دون الحديث عن مدير المدرسة أو المؤسسة إذ هو نقطة الارتكاز التي تجمع بين كل أطراف الفاعلين في المؤسسة بما في ذلك التلاميذ والمعلمين وكل أطر الإدارة والمسيرين والساهرين على الخدمات المساندة. وإذا كان الأمر كذلك، فلابد من أن تتوفر في المدير شروطاً لازمة ولابد أن يكون على وعي بتلك

الشروط والأصول والمهارات حتى يستطيع أن يُحقق الدور القيادي المنوط به.

يمكن الجزم بأن نجاح المدرسة أو المؤسسة التربوية أو التعليمية هو من نجاح مُسيريها وعلى رأسهم مدير المدرسة أو المؤسسة. فإذا استطاع مدير المدرسة أن يدير جميع شؤونها بحنكة ومهنية عالية، واستطاع أن يرفع من مستوى التواصل والتعاون بين جميع الأطر والتلاميذ، وبينه وبين الجهات المسئولة، فلا شك أن ثمرة جهوده وجهود كل طاقم المؤسسة سيتكلل بالنجاح وسيكون جلياً. وبما أن الوظيفة الرئيسية للإدارة المدرسية هي تهيئة الظروف وتقديمُ الخدمات التي تساعد على تربية التلاميذ وتعليمهم بشكل صحيح وسليم رغبة في تحقيق النمو المتكامل لهم (جسدياً وفكرياً)، تبقى مسؤولية البحث عن الإدارة الناجحة وعن المدير المناسب والمؤهَّل أمانة على عاتق وزارة التربية والتعليم التي يجب أن تسعى جاهدة في البحث عن الأشخاص ذوي الكفاءات والخبرة والمهارات اللازمة لتقطع بذلك الباب عن أي محسوبية وأي انزلاق يُخرج بحثها عن مساره الصحيح والمعقول. وبما أن وظيفة الإدارة المدرسية هي إعداد الناشئين للحياة في مجتمعاتهم، فلابد من مراعاة متطلبات سوق العمل ومتطلبات الحياة العصرية التي أصبحت ترتكز وبشكل كبير على التكنولوجيا الحديثة.

ولذلك يُلاحظ في وقتنا الحالي بأن مفهوم الوظيفة الإدارية قد تطور هو أيضاً في العصر الحاضر بما يتلاءم والتطور العلمي (الذي أصبح يرتكز على التكنولوجيا الحديثة أكثر من ذي قبل، الأمر الذي أصبح يلزم الإدارة المدرسية بمتطلبات ومواصفات حديثة ودقيقة، وأصبح أيضاً يلقي

عليها مسؤوليات كبيرة بحيث تكون مُلزمة بتحقيق مُبتغى النشء من تربية متكاملة فكرياً ونفسياً واجتماعياً، وتخرج المدرسة إلى عالم ومفهوم حديث بعد أن كانت لسنين خلت مقتصرة على تحقيق الكفاية المعرفية أو نقل الثقافة، ولم تعد كذلك مقتصرة على التعليم والنمو الأكاديمي والتلقين فحسب، بل اتسعت مجالاتها إلى النمو الاجتماعي والثقافي والفكري من خلال إكساب الطلبة عاداتٍ وتقاليدٍ وقيماً جديدة. وتبعاً لذلك، يمكن القول بأن الإدارة المدرسية أصبحت تُعتبر بمثابة أساس يعتمد عليه المجتمع في تحقيق أهدافه الاستراتيجية المرتبطة بإعداد الأجيال للحياة الفضلى والقادرة على مواجهة متطلبات القرن الحادي والعشرين. ومن أجل إتمام هذا البناء بنجاح، جاء دور هذا الكتاب القيم الذي بين يديك حيث يحوي الكثير من الخبرات والتجارب والنصائح التي يستفيد منها مدير المدرسة وجميع أعضاء هيئة التدريس وأيضاً الطلبة الذين يسعون نحو النجاح والتفوق ، لذا فهو كتاب هام في ذاته يحوي بين طياته الكنوز الوفيرة التي تجعل أي مدرسة ناجحة ومتطورة وحديثة .

د. عثمان شاكر



مقدمة المؤلفين

في تقديم هذا الكتاب الذي يوضح الاتجاه الذي يسير فيه التعليم العام، ينبغي أن نوضح وجهة النظر التي يرى المؤلفان أنها جوهرية وهي: أن الهدف من التعليم العام هو تشكيل الناس والمساهمة في فاعلية الفرد وسعادته، فينبغي أن يقوم النظام التعليمي على أساس وجهة النظر هذه، أي في ضوء ما يقدمه هذا النظام للناس جميعاً وإلى أي المستويات يصل بالغالبية العظمى من الأفراد؟ ثم ما هي أنماط السلوك الجمعي المرغوب فيها التي يساعد هذا النظام على تكوينها؟

وواضح أن كل نظام تعليمي كغيره من المشروعات العظيمة، لا ينجح نجاحاً تاماً بالنسبة لكل فرد يعمل فيه ويتصل به، فسوف يظهر فيه نوعان من الفشل، فشل آلي، وفشل إنساني [١] ، ففي بعض الحالات الفردية قد يقع خطأ في تشخيص حاجة ما وقد تصبح الطريقة التي تبدو صالحة لمعظم الأفراد غير مجدية بالنسبة لبعضهم، وكلما تحسن النظام

---

(١)يقصد بالفشل الآلي النقص في الأدوات والطرق التعليمية – مثل النقص في وسائل الإيضاح أو في طرق التدريس أو في اختبارات الذكاء واختبارات القدرات الخاصة والميول – التي تلزم للمدرسين في الكشف عن الذكاء والقدرات الخاصة الميول عند التلاميذ رغبة في توجيههم وتعليمهم، كما يقصد بالفشل الإنساني ما يقع فيه المدرسون من أخطاء في التدريس والتوجيه على الرغم من توافر الأدوات والإمكانيات وذلك نتيجة الجهل باستعمال هذه الأدوات ونتيجة عدم تدريبهم التدريب اللازم لحسن تطبيقها ونتيجة عدم مراعاتهم مقتضيات الموقف التعليمي وما يتطلبه من مرونة في استخدامها

التعليمي وجب أن تقل الأخطاء.

غير أن من الصعب أن نتوقع أن تنعدم الأخطاء انعداماً تاماً في وقت ما.

وقد أصبحنا نهتم اهتماماً كبيراً في الأعوام الأخيرة بهذه الأخطاء والعيوب نتيجة أنواع الفشل الكثيرة التي تعرض لها هذا النظام المعقد في الماضي، ونتيجة نقص التطبيقات الجديدة في الحاضر، ويبدو أن الاهتمام بالعيوب منتشر في المجتمع كله ذلك لأن المجتمع بطبيعة الحال يواجه نفس المواقف التي تواجه المدارس والتي يحتاج إلى أن يتكيف معها، ولهذا تناول كثير من الكتب والمقالات التي كتبت في التربية هذه العيوب.

والعلماء الذين يتصلون بميدان التربية اتصالاً وثيقاً «علماء النفس والاجتماع والأنثروبولوجي» لا يقدمون إلا توجيهات قليلة للمؤلفين ولهؤلاء الذين لا يقللون من شأن الاتجاه الباثولوجي ولكنهم يهمون بوضع نظام لا يترك إلا القليل من العيوب التي تقلق أصحاب هذا الاتجاه، وهذه التوجيهات واضحة بسيطة نسبياً [1] وقد حاولنا في هذا الكتاب أن نكشف عن برنامج التعليم الذي يساير حاجات العصر ويتوافق معها على أن نعرف قيمة هذا البرنامج وعلى أن يساير حاجات العصر ويتوافق معها على أن نعرف قيمة هذا البرنامج وعلى أن نقومه، ولكي نفعل هذا كان

---

(١)لعل المؤلفان يقصدان بذلك إلى أن علماء النفس والاجتماع والأنثربولوجيا يقدمون الكثير من الحقائق، والكثير من التوجيهات لمن يريد أن يشخص ما بالمجتمع وما بالتربية من عيوب ونقائص وأمراض، ولكنهم لا يقدمون للمؤلفين ولمن يقلل من شأن الاتجاه الباثولوجي إلا توجيهات قليلة، وأن المؤلفين يهتمان بوضع نظام تربوي بنائي يتوافق مع حاجات العصر، ووضع هذا النظام يخلص المدارس المتطورة من نقائض المدارس التقليدية وأمراضها، فهو لا يتوقف عند التشخيص بل يتعداه إلى العلاج والبناء.

علينا أن نعود أدراجنا لنقارن بين المدارس التي حققت هذا التوافق، وبين مدارس عام ١٩٠٠ التي يحتمل أنها كانت رديئة حتى في عصرنا ويحتمل أن تؤذي هذه المقارنة بعض المدارس التي تكافح لتساير ما كشفت عنه الأبحاث العلمية من حاجات وما توصلت إليه من فهم جديد لها، ولكننا نأمل ألا نسيء إلى هذه المدارس.

ونحن نأمل أن يتجه القاريء اتجاهاً بنائياً فيبحث عن نظام مدرسي مبدع خلاق في حياة الناس والأفراد – بحيث يدركوا الأصلح ولا يهدموا أو يفسدوا ما يقوم به المدارس أو المدرسة أو النظام التعليمي من محاولات لإصلاح المدارس، بل يعتبرون الرغبة والإرادة من جانب المدرس أو المدرسة أو النظام التعليمي في القيام بالعمل على نحو أفضل، دعوة لهم ودافعا يدفعهم إلى المساهمة والمساعدة في التفكير في هذه المسألة الجادة الخطيرة، ونحن مقتنعون بأن المدارس الجيدة لا يصنعها المدرسون أو المراقبون أو مجلس المدرسة، فهؤلاء وحدهم لا يستطيعون إلى ذلك سبيلا –ذلك لأن المدارس الجيدة أنماط من السلوك الإنساني، يقوم الآباء وغيرهم فيها بدور بالغ الأهمية بعيد المغزى [1] .

وقد كتبنا هذا الكتاب ونحن نفكر في المواطنين من الآباء وغير الآباء وهذا الكتاب لا يتناول التربية بطريقة هدامة ولا يصطبغ بهذا الاتجاه

---

(١)العملية التربوية عملية شاملة لا تقتصر على عمل المدرس أو النظام إذ أنها عملية إنسانية محورها التلاميذ يشترك فيها المواطنون جميعاً من آباء ورجال أعمال وغيرهم ونجاحها يتوقف على ما يوجد بين هؤلاء من تعاون.

الشائع في كثير من كتابات التربية، ولهذا فقد يجد فيه المشتركون في العملية التربوية من المدرسين والتلاميذ عوناً لهم.

والمؤلفان ليسا من التقدميين ولا من المحافظين، ولكنهما يهتمان بما يعتقدان أنه يهم المواطنين ويشغل أذهانهم– وهو أن نجعل مدارسنا فعالة في المجتمع.

وإذا ما أثبت العلم أوالتجربة مهما كان نوع ذلك العلم أو تلك التجربة – أفضلية أساليب معينة في أداء عمل من الأعمال فينبغي ألا يحول الخوف من الجديد دون الأخذ بها وقبولها.

ومهما كانت فاعلية مدرسة عام ١٩٠٠ فقد كان أثرها هائلاً إذا خرجت لنا عدداً كبيراً من الناس يعرف القراءة والكتابة وكان هؤلاء يقرأون سواء وجد لديهم دافع إلى القراءة واهتمامها بها أم لم يوجد لديهم شيء من ذلك، وكانت هذه المدارس تحرر الأطفال في مختلف بلاد الأرض من الأعمال المنزلية الصغيرة عدة ساعات كل يوم وعدة ساعات كل عام وكانت تتيح لهم بذلك الفرصة ليشبعوا دوافعهم الخاصة.

وقد كانت المدرسة في نظر المدرسين الفقراء مكانا مقبولاً هادئاً يجدون فيه ملجأ يتقاضون منه أجراً قليلا يحققون به مطالب الحياة اليومية، وقد زودتنا هذه المدارس بنسبة كبيرة من علمائنا وكتابنا ومدرسينا فهي ذات قيمة مهما كلفتنا من ثمن، غير أن هذا الثمن كان باهظاً يساوي أضعاف ما تستحق هذه المدارس فعلا.

الفصل الأول

الشعب والتربية

كتب هذا الكتاب لجميع المهتمين بفهم ما تحاول التربية الحديثة أن تفعله، وهؤلاء يشملون من لهم أطفال بالمدارس ودافعي الضرائب والموظفين وأعضاء مجلس التربية، بل ويدخل فيهم الجل الذي ليس له أطفال وذلك لأنه دائماً ما يوجد النصح لأطفال غيره من الناس ويدخل فيهم أيضاً رجل الأعمال الذي يدرك ما للمدارس من أثر في الحياة الاقتصادية في المجتمع.

كتب هذا الكتاب للمهتمين بالتربية على اختلافهم – كتب للآباء والمدرسين وغيرهم من المواطنين.

والمهتمون بالتربية يدركون إدراكاً واضحاً أن المدارس في تغير مستمر ولكن بعضهم يعرف السبب، والبعض الآخر حائر لا يعرفه، ونحن نريد أن نساعد المواطن الحائر ليعرف كيف تحاول المدارس الجيدة في الوقت الحاضر تربية أطفال اليوم ومواطني الغد.. وهذه المحاولة أمر لم تفكر فيه المدارس منذ أربعين عاماً بل ولم تكن معدة الإعداد الذي يمكنها من ذلك.

ومن المهم أن يدرك الشعب كله حقيقة المدارس باعتبارها نظاماً اجتماعياً ذلك لأن المدارس لم تبن للأطفال ووحدهم، أو لإراحة من لهم أطفال في المجتمع من رجال ونساء، إنما المدارس أداة اجتماعية تستحق أن

يهتم كل مواطن جاد في وطنيته بأساليبها وسياستها، فما تفعله المدارس الآن للأفراد يساعد على تحديد نوع الناس في الجيل القادم فلكل شخص نصيب في هذه النتيجة.

للآباء نصيب في نتائج التربية الحديثة ومن حقهم أن يعرفوا ما تحاول المدارس أن تعمله لأطفالهم، غير أن عليهم أن يعرفوا ما تستطيع المدارس الجيدة أن تعمله إذا ما بذلت كل ما في وسعها، أي كل ما تعرف عمله، وبعض الآباء يضيعون، دون قصد منهم، ما يتاح للمدرسة الحديثة من فرص تعمل فيها أفضل ما تستطيع عمله لأطفالهم وذلك باتجاهاتهم السلبية نحو طرق التدريس، التي لم تعد الطرق التي تعلموا بها عندما كانوا يذهبون إلى المدارس، وكيف يستطيع الطفل أن يحترم مدرساً يهاجمه أبواه وجيرانه الأجلاء الذين لم يألفوا ما طرأ على التربية من تغيرات ثم كيف يتعلم منه؟

وليست التربية الحديثة مدرسا لا يؤمن بالنظام، ولا مدرسة تعلم الأطفال ما يريدون، وليست مسئوليتها الأولى أن تجعل التعليم لذيذاً للأطفال فهي لا تهتم بتعليم مغلف بقشرة من السكر [1] .

---

(1)تشير هذه العبارة إلى اتجاه متطرف ظهر في ميدان التربية التقدمية في السنوات الأولى من تطورها حيث بالغ بعض المدرسين في تفسير مبدأ احترام الأطفال وقيام المنهج على ميولهم ورغباتهم بأن أطلقوا لهم الحرية الكاملة في اختيار ما يريدون تعلمه مما أدى إلى ظهور أخطاء كثيرة في عملية التدريس مثل: التقليل من دور المدرس في تحية الأطفال والتقليل من شأن الكتب والمعلومات، كما أدى إلى فهم معنى الحرية والنظام، ولعل مثل هؤلاء المدرسين هم السبب في العيوب التي تنسب خطأً إلى بعض الطرق الجديدة في التربية مثل طريقة المشروع، ذلك أن تطبيق هذه الطرق على وجه صحيح لا يتضمن تناقضا بين قيام المدرس بدوره الإيجابي في توجيه التلاميذ واستخدام الكتب واكتساب المعلومات، وبين احترام ميول الأطفال واتخاذها بداية لعملية التعلم.

وإليك مثالاً لا يعتبر تربية حديثة: قررت مدرسة شابة في قرية أن تعلم بطريقة حديثة فأمرت الأطفال أن يأتوا بأنفاس فاكهة فارغة ليصنعوا منها طائرة، وأنفق أطفال الفصل وقتاً طويلاً في صنعها وقد لاحظ هذا أحد الأشخاص فسألها، ماذا يعمل الأطفال؟

فأجابته «إنهم يصنعون طائرة».

فأردف يسأل «ولماذا يصنعون هذه الطائرة؟».

وكانت إجابتها «أنا أؤمن بالتربية الحديثة، وقد قرأت أن الأطفال في المدارس الحديثة يصنعون أشياء».

وفي الحق أن الأطفال في المدرسة الحديثة يصنعون وينشئون أشياء، غير أن المدرس لا يوفر التربية الحديثة أو يحققها حين يطبق ما ابتكرته هذه التربية تطبيقا أعمى. فماهية التربية الحديثة هي أن يكون لدى المدرس أهداف تربوية عميقة تحقق عن طريق ما يقدمه من تطبيق وممارسة، ولكي يكون المدرس حديثاً في تربيته ينبغي أن يعرف ماذا يفعل، ولماذا يفعله، وعليه أن يتقبل تقويم أعماله وتقديرها في ضوء صلاحيتها.

ومن الخطأ أن نقول إن التربية الحديثة تنجح في كل أمر تحاوله، فالتربية كالطب والجراحة والهندسة والتكنولوجيا قد تقدمت تقدماً هائلاً في الخمس وعشرين سنة الأخيرة وتقدمت في معرفة ما تعمله لكي تحقق نتائج مرغوب فيها، وغير أن ثمة صعوبات وعوائق تحول دون وصول المدارس إلى ما يمكن الوصول إليه، ومن بين هذه الصعوبات وجود أناس يرتابون في كثير مما يجري في المدارس اليوم ويخالف ما كان يحدث في المدارس منذ خمسة وعشرين أو ثلاثين عاماً، وهذا يماثل معارضة الذي يقوم به طبيب

حديث لمريض بالتهاب في الرئة يستخدم فيه عقاقير «السلفا» ذلك لأن طبيب الأسرة كان يعالج هذه المرض في الماضي «بلبخة مكونة من بصل مجروش وتربنتينا وكيروسين وخردل»، وهناك آباء وموظفون ومحررون في الصحف بل وبعض المربين وآخرون من أفراد الشعب يحضون المدارس على أن تعود إلى الأوليات، وقد سمعت هذه الصيحة في العقد الثالث من هذا القرن من المعلقين على الحالة الحربية ذوي النوايا الطيبة، وكان يقصد بالأوليات في لغة الأسطول البحري التركيز والاهتمام بالسفن الحربية وإهمال الأشياء الثانوية كالحمالات والطائرات التي لم تجرب بعد ويقصد بالأوليات، دائما حين نتحدث عن الجيش الجنود المشاه أما الطائرات فإنها تلي هؤلاء في الأهمية.

لا يستطيع أحد أن ينكر ما للأوليات من أهمية في ميدان التربية – شأنه شأن غيره من الميادين – ولكن ليس لإنسان أن يدعى أن هذه الأوليات في التربية لم تدرس في معظم المدارس بنفس الطريقة التي ندرسها بها الآن، فربما كانت بعض المدارس تدرسها على النحو الذي نقوم به الآن، وليس معنى ذلك أن معرفة الأوليات وحدها مهما كانت دقيقة تكفي لضمان قدرة الأفراد على أن يتنافسوا في الحياة وتكفي أيضاً لضمان مهارتهم في معالجة مشكلات العالم في المستقبل، كذلك ليس لإنسان أن يزعم أن المواد الأولية في ميدان التربية هي الأشياء الأساسية الوحيدة في هذا الميدان.

ومع ذلك فإننا نجد أن بعض عناصر الشعب تنادي بالرجوع إلى حجرات الدراسة بجدرانها الأربعة الكئيبة وإلى التربية التي تقوم على الكلام

والكلمات المطبوعة، ويصعب على هؤلاء المدافعين عن التربية التقليدية أن يدركوا أن هذه المطالب لا تؤدي إلى هزيمة ساحقة في ميدان التربية فحسب بل ستودي إلى نظام تربوي لا يعد الأطفال على الاطلاق لمطالب المستقبل.

وإذا أمكن وصف التربية الحديثة في عبارة واحدة فقد تكون العبارة التالية، المدارس في تغير لأن الزمن وفهم الأشياء وقد اكتشفت حقائق كثيرة عن كيفية التعلم في الخمسين سنة الأخيرة أكثر مما اكتشف في القرون الطويلة التي سبقت هذه الفترة، والمدارس في تغير، وسيستمر هذا التغير.

ونحن عاجزون عن الرجوع إلى التربية القديمة وعجزنا في هذا لا يقل عن عجزنا عن الرجوع إلى العربة والحصان، وإلى المضخة التي كانت توجد في فناء البيت الخلفي لنزوده بالمام، وإلى مصباح الزيت[1]، ولن نعود إلى التربية القديمة لأن معرفتنا قد اتسعت وتقدمت، ولا يعني هذا أننا سنقيم التربية على أفكار ومعان متداعية غير ثابتة، فللمدارس طرق تحاول بها أن تجرب أفكارا جديدة وأن تفحصها في ضوء الذوق العام، وأن تضيف إلى

([1])قد يبدو للبعض أن هذا التغير قاصر على الولايات المتحدة إلا أنه من الواضح أن مجتمعنا المصري في تغير مستمر فعلى الرغم من وجود العربة الحصان ومصباح الزيت مضخة الماء وما إلى ذلك من الأشياء التي تعتبر من مخلفات الماضي إلا أن هذا التغير شمل ميادين الحياة المختلفة، فظهر في المباني والأدوات المنزلية والأزياء والآلات الزراعية والصناعية وفي وسائل المواصلات وفي النظم المختلفة، ويتمثل هذا التغير في ميدان التربية بشكل ملحوظ في التجارب التربوية المختلفة في المدارس النموذجية وبتمثل أيضاً في الأخذ بالاتجاهات الحديثة في وضع المناهج وفي صنع الوسائل المعينة على التدريس.

ومن المؤكد أن أخذ مجتمعنا بمبدأ التطور والإقبال على الجديد النافع يحول دون التمسك بالظلم القديمة الفاسدة في ميدان التربية وفي غيرها من الميادين.

النواحي الجيدة والرساخة من المدارس القديمة عمليات أفضل، وتطبيقات أحسن، وخدمات قيمة تفيد في إنماء الصغار وسوف تستمر هذه الإضافة، وإن وقعت أخطاء من وقت لآخر، وقد تبذل محاولة أو تطبق فكرة لا تؤدي إلى النتيجة المرجوة فتحذف هذه المحاولة ويستبعد ذلك التطبيق، غير أن الإنسانية في كل مرحلة من مراحل تطبيقها لمعرفة فنية جديدة في الميدان العملي معرضة للخطأ ومدارس اليوم- بل أحسن ما لدينا من مدارس – تخفق أحياناً مع بعض الأفراد ولا يهدف هذا الكتاب إلى الدعوة إلى التسامح مع الفشل أينما وجدناه.

فليس هناك اعتذار عن إخفاق مدرسة في تشخيص مشكلاتها، وفي معالجتها على النحو الصحيح، فمثل هذا الإخفاق أما أن يكون خطأ إنسانيا أو خطأ فنيا وأن نقدم عنه عذرا، فالطبيب الذي يخفق في تشخيص مرض لا يعتذر عن هذا الإخفاق، وعلى الرغم من موت المريض فإننا لا نهجر الطب الحيث لنعود إلى السحر والشعوذة.

يهتم جميع أفراد الشعب بالتربية لأن لكل نصيب فيها وهم الذين يدفعون الضرائب وينبغي أن يعرفوا ما يحصلون عليه مقابل ما يدفعون من مال، وينبغي أن يعرفوا لماذا تتكلف المدارس نفقات نفقات باهظة ومن حقهم أن يسألوا أسئلة موجهة واضحة عن التربية، كالأسئلة الآتية.

إذ أنشأنا طائرات في حجرة الدراسة أليس في هذا إضاعة للجهد والوقت، فما الذي تهدف إليه مثل هذه العملية؟

إذا كانت البنات البنون الذين استأجرهم في عمل ما لا يجيدون

التهجي، فخطأ من هذا إن لم يكن خطأ المدرسة؟

إذا لم يكن النظام قد تلاشى بالمدارس، فلماذا لا يحترم الصغار الكبار؟

وإذا كانت الخمسين سنة الأخيرة قد كشفت عن حقائق كثيرة عن التعلم فما الذي يعرفه المدرسون في الحاضر ولم يكن يعرفه المدرس القديم؟

وإذا كانت القراءة والكتابة والحساب مازالت مهمة كما كانت، فلماذا لا تكرس المدارس لها وقت أطول؟

وإذا كانت مدارس الدولة تقوم بعمل طيب فلماذا تنهال عليها الهجمات والانتقادات لأسباب تربوية؟

إن هدف هذا الكتاب هو توضيح بعض أسئلة كهذه.

الفصل الثاني

تطور نظريات التعليم

يميل هؤلاء الذين يتكلمون عن التربية إلى الحكم على المدارس الجيدة بكلمة واحدة: هي : «كلمة تقدمية» إلا أن هذه الكلمة قد فقدت معناها من الناحية العملية باستعمالها على هذا النحو:

ولم يعد للكلمات «تقدمية» أو «تقليدية» أو «جوهرية» أو «أساسية» أي معنى عملي عند تطبيقها في ميدان التربية، حقاً كان لها معنى إلا أنها اتخذت معاني كثيرة متباينة مما أدى إلى إثارة الغموض حولها في الوقت الحاضر.

فهي تعني شيئاً عند شخص وشيئا آخر عند شخص آخر كما أنها تبدو أكثر تذبذباً من كلمات «متحرر» و«محافظ» في ميدان السياسة، هذا إلى أن استعمال هذه الألفاظ استعمالاً جامداً يحجب المسألة الحقيقية.

والمسألة الحقيقية هي: هل في الإمكان أن يتوفر لنا مدارس جيدة تساير ما وصلنا إليه من معرفة خاصة بتحسين هذه المدارس، ونعتبر هذه المسألة مسألة واقعية فليست بنا حاجة إلى القول بأنه لا توجد مدرسة في أي مكان بلغت من الجودة مستوى ما تبلغه مدرسة تنظم أمورها في ضوء ما تعرفه من عملية التعلم.

هل نستطيع أن ندرب العقل كما ندرب عضلة من العضلات.

في أعقاب القرن الماضي بدأ ثورنديك يجري تجاربه في ميدان التعلم وكان الناس من ذلك الوقت يقبلون على وجه العموم فكرة تدريب العقل [1] عن طريق سلسلة من الدروس الصعبة كما كانوا يرون ضرورة تدريب العقل أثناء نموه، وأنه كلما استعملت في تدريبه دروس صعبة كان تدريبه أفضل.

وعلى ذلك كانت المدارس تعلم مجموعة من المواد الدراسية المحدودة «اللاتينية واليونانية والعلوم الرياضية والأدب الإنجليزي.. إلخ» وذلك لأن المربين افترضوا أنهم قد اكتشفوا عن طريق خبراتهم الشاملة في التعليم أن

---

(١)يعتبر إدوارد ثورنديك من أهم علماء النفس الذين أثروا في ميدان التربية أثناء الثلث الأول من القرن العشرين، فقد اهتم بالدراسات التجريبية في ميدان التعلم وأجرى تجاربه على الحيوانات، كما اهتم بتطبيق نتائج هذه التجارب في ميدان تربية الأطفال، ومن أهم النظريات التي دحضها، نظرية التدريب الشكلي فقد أثبت أن العقل لا يمكن تدريبه كما تدرب العضلة أثبت ذلك بنظريته التي تسمى «نظرية الترابط» والتي تقوم على قوانين ثلاثة: ١– قانون الاستعداد، ٢– قانون الاستعمال، ٣– قانون الأثر.

وتفسير ذلك أنه إذا ما أدرك الطفل أهمية الشيء الذي يتعلمه فإنه يتهيأ لذلك ويستعد للقيام به «قانون الاستعداد» ثم يقوم بالنشاط اللازم الذي يساعده على تعلم هذا الشيء وعن طريق التمرين على هذا النشاط «قانون الاستعمال» يزداد قبوله لتعلم هذا الشيء، ويتوقف ذلك أيضا على مقدار ما يحققه من نجاح أو يصادفه من فشل «قانون الأثر» فإذا نجح الفرد في عمله أدى ذلك إلى اشباعه وإلى ازدياد تعلمه وتثبيت ما يتعلمه هكذا، ويرى ثورنديك أيضاً أن انتقال أثر التدريب من موقف إلى آخر يتوقف على وجود عناصر مشتركة بين الموقفين، فإذا أردنا تدريس الهجاء للأطفال بطريقة صحيحة يجب ألا ندربهم على هجاء ألفاظ صعبة يندر استعمالهم لها في المواقف الحقيقية مثل الكتابة والحديث، إذ يجب أن نختار الكلمات التي يستعملونها في هذه المجالات ونعلمهم إياها، وبالمثل في تدريس الحساب والمهارات المتخلفة، وقد أدى ذلك كله إلى دراسات عديدة كان لها أثر كبير في تغيير المناهج الدراسية، ولكن ليس معنى هذا اختفاء نظرية التدريب الشكلي فلا تزال بعض المدارس تدرس على أساسها وليس معنى هذا أيضاً أن نظرية ثورنديك تعتبر كاملة.

هذه المواد مفتاح تدريب العقل، إلا أن هذه المواد وطريقة تدريسها تعتبر في الواقع ضعيفة الصلة بالطريق الذي سيسلكه الطفل في حياته المقبلة، لأنها ضعيفة الصلة بالمسائل الجارية كما أن تطبيقها على المشكلات والحاجات الواقعية يعتبر قليلاً والانتفاع بها واستخدامها في الحياة اليومية يعتبر ضئيلاً، إن هذ المواد تقوم أساساً على التعلم من الكتب.

وفي الحق وجد مدرسون ممتازون خلال العصور والأجيال بل وجد أحياناً مدرسون عظماد وفي الحق أيضا أن هؤلاء المدرسين الممتازين منهم والعظماء قبلوا على وجه العموم الفكرة القائلة بأنه ليس هناك أهمية كبيرة لما تدرسه للطفل مادام لا يميل إليه، ولكن مثل هؤلاء المدرسين كانوا قلة نادرة، وبينما كانوا يوجهون التلاميذ إلى تدريب العقل من ناحية كانوا يعالجون شخصيات تلاميذهم النامية بطرق سليمة حكيمة من ناحية أخرى، إلا أن التلاميذ الذين كانوا يعلمونهم قبل ظهور فكرة التعليم العام كانوا أطفال من النوع الذي كرس حياته على التدريب المدرسي إلى حد كبير ولعل هذا هوالسبب في نجاح الطرق الشكلية في تدريب العقل إذ أنه لا تجد في فكرة أنك تستطيع أن تدرب العقل كما تدرب العضلة من الصواب إلا القليل، ونحن جميعاً نعرف ذلك المحامي الذي يكد أن ما اكتسبه من فوائد من جراد تدريب العقل على حل تمارين الهندسة لا تذكر حتى أنه لم يعد الآن قادراً على أن يحل تمارين هندسية فقد مضى عليه وقت طويل جداً ولا يستطيع أن يتذكر إلا عدداً قليلاً من نظريات الهندسة، ومع ذلك فالتدريب على هذه المادة قد صقل إلى حد كبير معدن قواه العقلية الجامد.

وربما حدث هذا، إذ أنه يحدث في أمثلة معينة وخصوصاً مع هؤلاء الذين يميلون إلى التعلم من الكتاب، ولكننا حين نتوقع أن يجني كل شخص أو أن يجني غالبية التلاميذ الذين يلتحقون بالمدارس فوائد مماثلة فإننا نتوقع معجزة، وليست أصلح الطرق لإنماء عقول الشباب المحب للكتب ولإنماء قدراتهم العقلية أن نعلمهم مواد صعبة على أساس أننا نتوقع أن هذه المواد تصقل العقل وتدربه بحيث يستطيع أن يعالج بنجاح المشكلات الأخرى المختلفة في طبيعتها اختلافاً بائناً عن هذه المواد، ويكمن في هذا إلى حد ما مغالطة «الدواء الجاهز» في التربية التي ينصح بمجموعة من النظريات وعدد من الكتب وعدد من التمارين السحرية أو بأي ثمن ليختصر الطريق الذي يحقق الخلاص التربوي.

وقد عمل ثورنديك وغيره من علماء النفس على أن يكشفوا نواحي النقص في مبدأ التدريب الشكلي للعقل ومثال ذلك: القول بأن دراسة اللغة اللاتينية تساعد الإنسان على إجادة اللغة الإنجليزية وأنها تفيد قوى التفكير وتفيد الخلق، مثل هذا المبدأ يقتصر على حالات قليلة نسبياً، وقد اكتشفوا أن هناك طرقا أفضل لتحقيق هذه الأشياء، فأصلح طريقة لتعلم اللغة الإنجليزية وإجادتها هي أن تدرس الإنجليزية وتكتبها وتتحدث بها كثيراً، وأفضل طريقة لتنمية قوى التفكير هو أن تدربها على حل بعض المشكلات المنوعة التي تماثل مشكلات الحياة التي يلتقي بها الإنسان والتي تحتاج منه إلى حل.

أي أن تنمية قوى التفكير لا يكون بالاقتصار على حل المشكلات التي تضمنتها الكتب، وأحسن طريقة لإنماء الخلق هو أن يعمل الإنسان

ويحاول في مواقف من النوع الذي يتوقع أن يعمل فيها وأن يختبر خلقه في هذه المواقف.

ولهذه الأسباب نبذت المدارس الجيدة تدريجياً تعليم اللاتينية لجميع التلاميذ– لا لأن اللغة اللاتينية صعبة جداً، بل لأن كثيراً مما يعمله التلاميذ في المدارس الجيدة يقوم على أساس منهج سليم يهدف إلى إنماء العقل والخلق بطرق تماثل ما يوجد في الحياة، كما أن هذا المنهج يرى إلى تحقيق غايات واقعية ويتطلب كل هذا من التلاميذ مجهوداً أكبر مما تتطلبه منهم التمارين التي يشتمل عليها تعلم اللاتينية.
وقد يكون لتعلم اللاتينية والهندسة والإلمام بالحقائق قيمة في ذاته وتختلف هذه القيمة من تلميذ إلى آخر اختلافاً عظيماً، ومن الضروري أن ندرك هذا، غير أنه من الضروري أيضاً ألا نتوقع من نظريات التدريب الشكلي أكثر مما تستطيع أن تقدم لنا وأكثر مما تصلح له.

وقد اكتشف علماء النفس أنه عندما يستطيع التلميذ إدراك العلاقة بين السبب الذي يدفعه لتعلم شيء ما وبين فائدة هذا الشيء الذي يتعلمه، عندئذ فحسب، تؤدي الممارسة إلى الكمال والاتقان في التعلم، غير أن إدراك العلاقات يتطلب ذكاء وهذا هو السبب في أن المدارس التي تعتمد اعتماداً أساسياً على قليل من الكتب والمواد في تعليم التلاميذ كل مهارة قد نجحت نجاحاً متواضعاً مع الذين يميلون إلى الكتب، وكلنا يسمع عن العالم الذي درب في فرع تخصصه تدريباً طبياً، والذي يجهل جهلاً كبيراً مسائل السياسة وشئون العمل.

ويتوقف إدراك العلاقة بين موقفين على مدى ما يوجد بينهما من تشابه ومدى ما يعنيه كل منهما بالنسبة للمتعلم وبالنسبة لأهدافه، ويعني هذا أن أفضل سبيل لتدريب المتعلم على القيام بدور ما، هو أن يقوم به فعلاً وهذا هو السبب في أن مدرسة الخبرة [١] تعتبر معلماً جيد، وعندما تدرك المدارس واجبها نحو تدريب التلاميذ على الأدوار التي يجب أن يقوموا بها في العالم الواقعي، فإنها نستطيع النجاح إلى حد كبير إذا عملت بقدر الإمكان على أن تكون واقية مثلها مثل العالم الذي يحيطها – وبذلك تصبح مدرسة يجد التلاميذ أنفسهم فيها مع موجهين محنكين، يواجهون معهم مشكلات الحياة ويساعدونهم على حلها، وعن طريق هذا يتدربون على القيام بهذه الأعمال التي قد يقومون بها في المستقبل، وليس معنى هذا قليل من الكتب وقليل من المواد، وإنما يعني كل هذا الكثير من الكتب والكثير من المواد الدراسية والأدوات والأجهزة والصور كما يتطلب هذا أيضاً أنواعا كثيرة من النشاط، إذ أن في الحياة أدواراً كثيرة يقوم بها الإنسان، وفوق كل شيء فإن هذا يعني التوجيه المباشر من جانب مدرسين محنكين «وهذا شيء يندر وجوده جداً في مدرسة الخبرة» [٢] .

---

(١)لمدرسة الخبرة معنى خاص عند المؤلفين وهو الحياة التي كان يحياها الأطفال عندما كان المجتمع بسيطا، وحيث كانوا يمارسون ألوان من النشاط ويمرون في خبرات متنوعة يتعلمون عن طريقها مهارات مختلفة بالممارسة والمشاركة الفعلية، وقد نسمى هذا النوع من التعلم بالتعلم الغير مقصود، وهو النوع الذي كان يحتل جزءاً كبيراً من حياة الأطفال قبل ظهور التخصص والتعقد في المجتمع، بينما كانت وظيفة المدرسة آنذاك تقتصر على التعلم النظري الذي يقوم على قراءة الكتب وحفظها، وقد أوضح المؤلفان هذه الفكرة في الفصل الخامس.

(٢)معنى هذا أن التوجيه المقصود من جانب الكبار في ميادين الحياة – مدرسة الخبرة – أقل انتظاما من التوجيه المقصود الذي يوجد بالمدرسة والذي يهدف إلى تكوين اتجاهات معينة في التلاميذ عن طريق إعداد مواقف وخبرات منظمة.

وهناك فكرة أخرى شاعت في الأعوام الماضية، وهي أنك تتعلم شيئاً واحداً فقط في كل فترة زمنية، وقد دحض البحث السيكولوجي هذه الفكرة، ذلك أن الناس كانوا يعتقدون أن الذاكرة منفصلة عن الإرادة، وأنهما منفصلين على الانفعالات، وأن الجسم بعملياته كلها مازال جزء آخر مستقلا، وأن ما يحدث فيه علاقة له بما جرى في العقل، وطبقا لهذه النظرية أعتقد الناس أن قدرات الإنسان واستعداداته ووظائفه مرتبة ترتيبا منطقيا كما ترتب البضائع في متجر كبير.

وقد وجد هذا النوع من النظام في منهج المدرسة، نظام المتجر المقسم إلى أقسام منفصلة، بعض المواد تدرب الذاكرة، وقد كان يعتقد أن هذا التدريب يقوي الذاكرة وبعدها لتتذكر أية مادة أخرى، وكانت العلوم الرياضية موضع تقدير كبير، باعتبار أنها تدرب التلميذ على الدقة بجميع أنواعها.

وكان يعتقد أن اللاتينية واليونانية مفيدتان ولاسيما إذا كان المراد يبغضهما، لأنهما تقويان إرادته وتعدانه لجميع أنواع المواقف، وكان يعتقد أن وطنية المرء تقوى إذا قرأ عن حياة أبطال أمته وكان يعتقد أيضا أن الإنسان يتشرب الأمانة حين يقرأ عن نجاح الأمناء في الحياة، والحق قد يحدث أن يحقق هذا التدريب أحيانا هذه النتائج المرغوب فيها ولكن هذا الحدوث نادر وبالغ الندرة بحيث تبدو هذه الطريقة غير صالحة وغير فعالة، والواقع أنه إذا كانت التربية الصحيحة بسيطة إلى هذا الحد فإن هذا

سيجلب لنا الراحة بالضرورة– فإنها عندئذ ستصبح مسألة آلية كإيجاد توازن في الغذاء.

لاحظ أن كل هذه الحيل قد طبقت بنوع خاص على العقل ومادام العقل هو العظمة التي تتوج الإنسان، أليس من المنطق أن توجه التربية بنوع خاص إلى العقل لكي تساعد على تنمية ضوابط تجعل الرجل المتعلم كاملا في عقيدته وفي سلوكه؟ ولذلك أصبحت المدرسة مؤسسة لتدريب العقل، مع استثناء حالات قليلة، وجد فيها مدرسون ممتازون أدركوا أن مثل هذه النظريات محدودة ناقصة – والمدرسون الممتازون أناس يتصفون بسعة في الأفق وخصوبة في التفكير فهم يرون أن المشاعر والانفعالات والروح وسلامة الجسم كلها تلعب دورا في التعليم لا يقل أهمية عن الدور الذي يقوم به العقل.

وقد توصل علماء النفس في الخمسين سنة الأخيرة إلى أن العمليات العقلية والانفعالية والجسمية متكاملة تكاملا تاما، وقد اكتشف هذا المبدأ في أول الأمر نتيجة دراسة حالات أناس يقاسون في أمراض معينة، فقد اعتقد أن القرح المعدية مثلا تنتج عن نقص في الغذاء، أو ازدياد في إفرازات الجسم.

غير أن كثيرا منها وجد أن سببه الجوهري هو حالة الشخص النفسية، والقرح أشياء حقيقية واقعية لا خيال فيها، ولكن أسبابها قد تكمن في استجابات المريض الانفعالية نحو العالم الذي يحيط به.

وهناك حالة الحلاق الذي أصيب بشلل في ذراعه، وكان الشلل

حقيقيا، حتى أنه لم يتمكن من قص الشعر، إلا أن الأطباء قد اكتشفوا اختفاء الشلل عندما ترك الحلاق عمله إلى عمل آخر يختلف عن الأول الذي كان يعني بالنسبة له صدمة انفعالية تفزعه، وهذه حالات متطرفة، ويحتمل أن يحدث لأي واحد منا حالات ليست على هذه الدرجة من التطرف.

وقد توصل علماء النفس من دراسة مثل هذه الحالات إلى إثبات مبدأ التكامل، وهذا يعني أننا لا نستطيع أن ندرب العقل تدريباً ناجحاً دون أن نهتم بالانفعالات، ولا نستطيع أن نربي العقل والانفعالات تربية فعالة دون أن نتأكد من سلامة صحة الجسم، ومن الوهم والخيال أن نفترض أن الوطنية وجذورها الانفعالية، يمكن أن نتعلم بعملية عقلية قوامها حفظ أجزاء من الدستور من الساعة التاسعة والنصف حتى العاشرة والربع.

وباختصار، إن أكثر الطرق قصورا، في تدريب العقل هو أن نركز اهتمامنا على العقل وحده، وهذا هو السبب في أنه من الأفضل أن نتأكد أن أطفال السابعة يشعرون عند وجودهم بالمدرسة أنهم في بيوتهم، وأنهم يحسون بالأمن والسعادة، وبأنهم ينتمون إلى الآخرين الذين يتصلون بهم، بدلا من أن نقفز بهم مباشرة إلى تعلم القراءة والكتابة والحساب، وبالرغم من أن المدرسين المحدثين الذين يعملون الأطفال في السابعة قد لا يركزون اهتمامهم مباشرة على القراءة والكتابة والحساب، كما كان يفعل المدرسون في الماضي، فإن هؤلاء الأطفال في نفس الوقت يتعلمون أشياء لم يكن في وسعهم أن يتعلموها بهذه الجودة في أي وقت آخر، وذلك مثل

تعلمهم كيف يتعاون بعضهم مع بعض، وكيف يتناوبون العمل، وكيف يقترض الواحد منهم نقودا من الآخر، وكيف يحترم ممتلكات غيره وكيف يألف الكتب والأفلام والأوراق والصور، ويتعلم المدرس من ملاحظة نمو هذا الناشيء ، أنسب وقت يرغب فيه تعلم القراءة وفي أي وقت من حياة ذلك الطفل يؤتي تعلم الأعداد أفضل النتائج والأشياء وأنواع النشاط التي تثير نمو طفل آخر وهكذا.

ويتعلم كل شخص أشياء كثيرة في وقت واحد، فمن المستحيل أن تجعل العقل يعمل وحده، وأن تبعد كل ما عداه عندما نضرب ٢ x ٢ ذلك أن الفرد الذي يعمل ككل يدرك الموقف ككل، بحيث لا يستجيب إلى ٢ x ٢ فحسب بل يستجيب لاتجاه المدرس، وللطفل الذي سبقه في تعلمها، وللجو الذي يسود الحجرة وللطقس الجميل في الخارج ولطعامه الساخن الذي تناوله في فطوره وللجهد الذي يبذله جيرانه من التلاميذ ولحجم الكتاب الذي أمامه وشكله حروفه ولأشياء أخرى كثيرة، وكل منا كان في المدرسة يعرف أن الأمر كذلك.

ويحتمل أن تكون أسوأ طريقة لتعليم التهجي والخط، والقواعد والجغرافيا هي أن تخصص عشرين دقيقة في تعلم خمس عشرة كلمة من كتاب هجاء، وتخصص الخمس عشرة دقيقة التالية في التدريب على تمارين الخط من كتاب آخر، والأربعين دقيقة التالية في مناقشة المصدر واسم الفاعل وأربعين دقيقة أخرى في دراسة الموارد الطبيعية في كاليفورنيا، فهذه الطريقة تقوم على تقطيع المواد كما أنها تبالغ في التجريد وتبعد بها عن الواقع، ومع ذلك فهي الطريقة التي تستخدمها مدارس طراز عام ١٩٠٠

ومازالت تسخدمها كثير من المدارس إلى اليوم.

ومن بين الخطوات التقدمية الفنية البالغة الأهمية في ميدان التربية محاولة المدرسة الحديثة أن توجد التعلم وتربط بين أجزائه، وقد تطورت الطرق العديدة وتحسنت لتحقيق هذا، ولكن معظمها يدور حول دراسة مشكلة تستحق الاهتمام في ذاتها، مثل كيف أدت الموارد الطبيعية في كالفورنيا إلى غنى هذه الولاية، وتتطلب دراسة هذه المشكلة جمع الحقائق، ولكنها حقائق غير منفصلة ولا مجزأة، وتقتضي هذه الدراسة الكتابة، ولابد أن تبذل الجهود ليرى ما إذا كانت الكتابة مقروءة، وإذا لم تكن كذلك، فيطلب المدرس إلى التلميذ أن يتدرب على التهجي أو يوصيه بوسائل أخرى ليحسن كتابته، وتتطلب الكتابة معرفة هجاء بعض الكلمات، فإذا أسيء تهجيها يطلب المدرس إلى التلميذ أن يتدرب على التهجي أو يوصيه بوسائل أخرى، وتتطلب الكتابة استعمال اللغة على نحو سليم، ويقف المدرس عند الضرورة ليناقش قواعد اللغة ولكن المناقشة أو التدريب قد يختلفان تبعا لاختلاف الأفراد، ولا يتم التدريب في فراغ، بل إنه يتصل بالمشكلة التي يتناولها الطفل والتي يهدف إلى معرفتها.

الفروق الفردية

إن التدريس الذي لا يختلف اختلافاً ملحوظاً من فرد إلى آخر يحتمل ألا يكون مثمرا إلى حد كبير، ويعني هذا أن ما نعلمه، والطريقة التي نعلم بها، والوقت الذي نختاره من حياة المتعلم لنعلمه فيه يختلف اختلافا بينا من فرد إلى آخر، فمن الخيال أن نفترض أن تلاميذ الفرقة الخامسة جميعا

متشابهون.

ومن الوهم أن نفترض أيضا أنه ينبغي أن يدرسوا جميعا نفس الأشياء بنفس الطريقة، ونحن نعرف جميعا أنه حين تجتمع مجموعة من الناس ليعلموامعا عملا ما، فإن بعضهم يتقدم على البعض الآخر، وكثيرا ما اعتبر الناس جميعاً مثل هذا المبدأ مبدءاً بديهيا، ولكن الغريب أن المدارس لم تهتم به إلا اهتماما قليلا، إنه المبدأ الثالث الذي أثبت علماء النفس، في الأربعين عاما الماضية، صحته من الناحية العلمية.

وكانت مدارس عام ١٩٠٠ تعامل جميع التلاميذ معاملة واحدة، فيتعلم التلاميذ نفس المواد ويدرسون نفس الكتب، ويجلسون على مقاعد من نوع واحد ويدربون على تمرينات في نفس اليوم، ويستمعون إلى المدرس وهو يقول نفس الأشياء للتلاميذ جميعا.

من الغريب في بلد كرس جهده من الناحية السياسية لخدمة المثل الديمقراطية التي تقوم على احترام الفرد أن يحاول الاستمرار في البقاء عن طريق تدريب الأجيال القادمة بأسلو ب أوتقراطي، وعن طريق الاعتماد على أساليب تربوية لا تقوم على احترام الفرد في معظمها، فتوضع المستويات بطريقة آلية كما يستخدم الغربال لغربلة الحصى، فما يستطيع الإفلات منه يمضي، فيمضى الكثيرون دون أن يوجد ما يتحدى تفكيرهم ليبذلوا أقصى مجهود عقلي لديهم، أما هؤلاء الذين لا يستطيعون الإفلات فيبقون حيث هم، وقد كانت المسألة على هذا النحو من البساطة وكانت الخسارة جسيمة غير أن التحاق الأقلية بالجامعة ونجاحهم فيما كان يبدو

كافيا لتبرير النظام الفاسد كله، وقد ظهر أن أقلية من المربين قد أدركوا أن أية مستويات توضع لجميع الأطفال قد تكون سهلة جدا عند بعضهم وصعبة جدا عند البعض الآخر.

ومن السهل أن تدرك أن الناس يختلفون في أحجامهم وأوزانهم، وألوان شعرهم وعيونهم، وهناك فروق أخرى لا تدركها بهذه السهولة كاختلاف الناس في قدرتهم على الفهم، وفي قدرتهم على استخدام الألفاظ والتفكير والاستدلال، وفي شرعة القراءة، وفي الاستجابة للألوان، وفي تمييز الفروق في الأحجام والأوزان، وفي استعمال الأرقام، وفي التعاون وفي آلاف من أنواع النشاط الأخرى التي ترتبط بالعقل والانفعالات، وقد درس علماء النفس وضوع الفروق الفردية دراسة دقيقة في السنوات الأخيرة بحيث أننا نستطيع الآن أن نوضح عن طريق رسوم بيانية بضعة آلاف من الأمور التي يختلف فيها الناس.

وبما أنه لا يوجد شخصان متماثلان، فكل مدرسة تعتبر فاشلة منذ البداية إذا كان جهازها واحدا بالنسبة للتلاميذ جميعاً.

الفصل الثالث

القراءة والكتابة والحساب..

إن هدف المدارس الحديثة هو أن تربي وأن تعرف كيف تربي، والمدارس الجيدة «أي المدارس الحديثة» تتغير اليوم تغيراً مستمراً ذلك أنه لا توجد إلى الآن مدرسة وصلت طرقه الفنية من جميع وجوهها إلى مستوى ما وصلت إليه معلوماتنا العلمية عن عملية التعلم –هذه المعلومات التي ازدادت زيادة هائلة خلال الخمسين سنة الماضية، وعلى هذا يجب أن ندرك أنه من العسير أن نعتبر المدارس التي لا تتغير في بعض النواحي المهمة مدارس جيدة.

وعلى الأمريكيين أن يدركوا أن هناك عددا كبيرا من المدارس في بلدهم نستطيع أن نعتبرها جيدة في ضوء هذا المعنى، ومن ناحية أخرى، هناك بعض النظم المدرسية التي لا تزال تحتفظ بقيم الماضي السليمة والتي تشعر مع ذلك بالحاجات الجديدة التي يتحتم على المدارس مواجهتها، مثل هذه المدارس تعتبر مدارس متطورة، تعمل للملائمة بين المعارف الجديدة في التعلم وطرق التدريس العملي وهذه المدارس هي التي أدركت أهمية الدور الجديد البارز الذي ينبغي أن تلعبه في مجتمعنا وكانت أسرع نسبيا من غيرها في تشكيل برامجها وفقا لذلك.

وهذه المدارس لسوء الحالة قليلة جدا وقد أسرعت بعض المدارس

في اتباع هذه المدارس المتطورة وأبطأ البعض الآخر في ذلك إلى حد ما، وأبطأت الأكثرية في ذلك إبطاء شديدا حتى أنها احتفظت بأخطاء تربية عام ١٩٠٠ لتنافس بها في عالم القرن العشرين بما فيه من طب، وتكنولوجيا، وتجارة وصناعة ويعزي أغلب الحديث الذي يدور حول فشل التربية إلى إخفاق مثل هذه المدارس في عملها.

ومن الخطأ أن نفترض أن المدارس الحديثة لم تعد تهتم بتعليم القراءة والكتابة والحساب، ففي الحق أنها قد توصلت إلى طرق جديدة لتعليم هذه المهارات، وفي الحق أيضا أن هذه الطرق لا تنجح نجاحا كليا في جميع الحالات، فلم يوجد قط في الماضي، ويحتمل ألا يوجد في المستقبل طريقة احدة لتعليم القراءة والكتابة والحساب أو لتعليم أي مادة أخرى –تنجح نجاحا تاما في كل الحالات، وفي جميع الظروف، دعنا ننظر إلى المسألة بطريقة أخرى، لم يوجد قط دواء واحد، أو طريقة واحدة في العلاج تنجح في علاج كل مريض بمرض معين في جميع الظروف.

والمدرسة الحديثة تغير طرق تدريسها لكثرة ما تعرضت له الطرق القديمة من فشل.. وكان لابد أن تنجح أية طريقة لتعلم من الكتاب نجاحا جزئيا على الأقل مع أكثر التلاميذ ولعا بالكتب، وهذا هوالسبب أن المدارس القديمة قد تمسكت بطرق تدريسها مدة طويلة، وينبغي ألا يغرب عن الذهن أن عددا قليلا من الأطفال كان يلتحق بالمدرسة في الماضي، وأن هؤلاء كانوا يميلون إلى التلميذة ويهتمون بها، وواجبنا أن نتساءل حقيقة عما إذا كانت المدارس القديمة قد علمت هؤلاء التلاميذ فعلا شيئا كثيرا أم لم تعلمهم، يغلب على الظن أنها عرضت هؤلاء التلاميذ للتعلم،

غير أنه لا يذهب إلى المدرسة اليوم الأطفال المولعون بالدراسة فحسب بل يذهب إليها جميع الأطفال، وقد ظهر أن الطرق القديمة مخفقة مع الأفال جميعا فهي ليست مخفقة مع هؤلاء الذين لا يشغفون كثيرا بالدراسة والكتب فحسب بل ناقصة أيضا مع الأطفال المولعين بالاطلاع والدراسة.

الفاعلية في تعليم المهارات الأساسية

تعلم المدارس الحيثة اليوم أدوات المعرفة الأساسية ومجالاتها فهي تعلم القراءة، والكتابة، والحساب بطريقة تبشر بفاعلية عقول التلاميذ على نحو أكثر نفعا، وتبشر أيضا بقيم أكثر بقاء وفائدة مما فعلت مدارس عام ١٩٠٠، وقد كان تعليم هذه المواد هدفا أوليا دائما للمدارس.

ومع ذلك فلم تعالج المشكلة بطريقة فعالة ناجحة مع معظم الأطفال إلا في السنوات الأخيرة داخل المدارس الحديثة، وقد أسهم هذا النوع من المدارس مساهمة فعالة في حل هذه المشكلة: فقد عرفت كيف تعلم المهارات والمعرفة الأساسية في مواقف واقعية تماثل مواقف الحياة بيحث يدرك التلاميذ إدراكا سريعا معنى ومغزى ما يتعلمون، وقد وسعت المفهوم الضيق للقراءة والكتابة والحساب لتشتمل هذه المهارات على كل ما تحتاج إليه لندرس عالم اليوم ونفهمه ونتصل به ونفكر فيه، وقد اتسع عدد قليل من المواد ليشتمل على معظم جوانب التفكير والابتكار الإنساني، ولم نعد نقمع حاجة الطفل الذي يسأل عن بعض النظم الاقتصادية بقولنا «عليك أن تنتظر حتى تذهب إلى الجامعة لتعرف ذلك».

ونحن نعرف من خبرتنا في المدرسة كيف يسهل أن ننسى الكسور

مثلا بعد سنوات قللة من تعلمنا إياها عن طريق التدريب على التمارين الكئيبة وخدها، ونستطيع أن نتذكر الساعات الطويلة التي أمضيناها في دراسة مملة رتيبة سواء رغبنا في هذه الدراسة كثيراً أو قليلاً، وذلك لأنهم أخبرونا أن في هذا خيراً لنا، ونحن نشعر في ضوء ما تبقى لدينا من التوافه إن هذا كان عديم الفائدة، مضيعًا للوقت ناقصاً، وقد علمنا أننا سننسى، وكنا نشع بهذا شعوراَ قويا في ذلك الوقت ولكن نفوسنا هدأت لأننا كنا ندرب عقولنا، كما ندرب عضلاتنا بالتمرين وبالتدرييب، ولكن ما مدى يرتنا حين نكتشف أن هذا الأمل الذي نعول عليه ونثق فيه لم يتحقق إلا في قليل من الحالات فحسب! ونحن نعرف أن ما حدث، حاول أن تتذكر في أيام دراستك – إذا كنت قد التحقت بمدارس من طراز ١٩٠٠– الأملة الكثيرة للمجهود والحركة الضائعة خلال التدريب الطويل على حفظ معاني وقواعد الهجاء، وحل مسائل المساحة والحجوم، مع أنك لم تكن تفهم مغزى كل هذا.

ولكنك تستطيع أن تتذكر المرة الأولى التي استخدمت فيها الكسور. أو أي مهارة مدرسية أخرى في عمل مثمر فعلا، كان عليك فيه أن تحصل على الإجابة الصحيحة لتستخدمها في تحقيق غرض آخر، ربما اشتغلت في عمل كان عليك في أن تجمع قوائم البيع، وربما كان عليك أن تقسم مقادير من مواد لتصنع نوعا من الحلوى، وربما احتجت إلى تقدير المساحة أو الحجم، أو إلى إيجاد تناسب بين النموذج وكمية ما لديك من مادة حين قصدت إلى «خرط» أداة أو إلى تفصيل ثوب، وقد يلزم لك كمحام أن تتوصل إلى العلاقة بين تكاليف صنف معين من السلع وبين ثمن بيعه وقد

تشغف بمعرفة النجوم أو بالإلمام بمادة الفلك على ما بها من صعوبة، والمهارات التي تمارسها في هذه الظروف والحقائق التي تتعلمها لا تنساها سريعا، وأنت تعرف أن التدريب وحده طريق ضعيف لتحقيق الإتقان وكم مرة سمعت ملاحظة كهذه «لم أفهم التاريخ حتى بدأت في القراءة عن الحرب» أو هذه «لم أستطيع فهم الترقيم حتى بدأت أكتب للصحيفة المحلية عن نشاط النادي الذي أنتمي إليه»، أو هذه «لم أبدأ تعلم اللغة الإسبانية حقيقة مع أني درستها أربع سنوات بالمدرسة، إلا عندما أصبحت مسئولا عن مراسلات مصنعنا بجنوب أمريكا.

وهذه الخبرات تبين لنا فاعلية تعلم المهارة أو المادة في ضوء فائدتها، والواقع أنه إذا لم نجد طرقا لتثبيت التعليم وإذا اعتبرنا ذهاب الطفل إلى المدرسة أمرا طبيعيا فهل يؤدي هذا إلى القول بأن وقت الطفل مضيع لا قيمة له، لقد أخذت المدارس الحديثة بطرق تقوم على فكرة نجدها عند علماء النفس وهي أن الممارسة تؤدي إلى الاتقان حين يستطيع التلميذ إدراك أنه سيستخدم ما يتعلمه في الحياة، ويعني هذا أنه ينبغي أن يكون لما يتعلم بعض الواقعية وأن تكون فائدته ظاهرة، وينيغب أن يتعلم بطرق تماثل ما يوجد في الحياة.

وهذا ما توصلت إليه المدارس الحديث من قبل إذ توصلت إليه بطرق لا يمكن أن نقارنها بما يحدث في تربية ١٩٠٠، يبتبكر المدرسون في المدارس أثناء طريقة التعليم التي ترتبط بالحياة تطبيقات فعالة جديدة من يوم إلى آخر، فالتلاميذ في المدارس الحديثة أبعد ما يكونون عن الإقلال من الكتابة مثلا فهم يكتبون في هذه المدارس أكثرمما كتبت في المدرسة

فأنت وقد درست أجزاء الخطاب عندما تعلمته ثم كتبت تمرينا عليه أو أنك تخيلت صديقا وكتب له خطابا عن الحفل الأخير الذي حضرته، ولم يرسل الخطاب إطلاقا ولكنه صحح وقدر، وأعيد إليك، وكنت تستطيع أن تنسى هذا كله في اليوم التالي، لأن الفصل قد بدأ في دراسة كتابة الدعوات الرسمية وغير الرسمية.

أما في المدرسة الحديثة فلا توجد إلا فرصة ضئيلة للنسيان وذلك لسببين: الأول، أن ما يكتب غالبا ما يكون ذا هدف، والثاني: أن الخطابات قد تكتب في أي وقت وقد تكتب أيضا لأسباب كثيرة، وسيوفر الكثير من الممارسة إذ أن خطابات كثيرة تكتب، ولكنها ممارسة تتصل بأهداف ومعاني حية، وقد يكتب التلاميذ خطابات إلى تلاميذ آخرين في ولايات أخرى، وفي أمم أخرى، وقد يكتبون إلى زملائهم المرضى في بيوتهم وقد يكتبون إلى مختلف وكالات الشركات طالبين كتيبات ونشرات تعليمية «إخبارية» كما يكتبون إلى الآباء يصفون لهم فيها عملهم في المدرسة، وهم يكتبون مقالات للصحف المحلية وتقارير عن خبراتهم التي يشاركون فيها الفصول والمدارس الأخرى، وعن القصص التي تلفت نظرهم فيما يقرأون من كتب، وعن التمثيلات التي يمثلونها والتي تقوم على دراستهم، ويكتبون تقاريرعما يقومون به من تجارب كما يكتبون دعوات ينظمون بها مقابلاتهم، ودعوات أخرى إلى الحفلات والبرامج الخاصة، ويكتبون طلبات لمواد يحتاجون إليها، وقد توصل المدرسون المهرة إلى طرق لتوجيه الأطفال بحيث تصبح هذه الأنواع من النشاط مثمرة من الناحية التربوية، كما ابتكر المهندسون المنتجون المهرة طرقا علمية جديدة في الصناعة، وتستخدم

المدارس الحديثة ما يتوصل إليه المدرس العبقري المبتكر من نتائج طيبة.

وهذه كلها مواقف حية نجد لدى التلاميذ فيها استعداداً لإدراك العلاقة بين المهارة في الكتابة التي يتعلمونها وبين الغرض الذي تستخدم من أجله، ولكن ماذا عن القواعد والترقيم والتهجي، ووضوح الخط؟ ينبغي لا يوجد قلق أو خوف بصدد تعلم هذه الأمور، فالإنسان لا يستطيع أن يكتب بدونها، ومن ذا الذي يستطيع إدراك هذا أكثر من الأطفال أنفسهم عندما يوجدون في موقف يحاولون فيه أن يكتبوا خطابات حقيقية ومقالات وتقارير واقعية ليقرأها الآخرون؟ ليس هناك إلا حاجة ضئيلة لأن تحاول أن تدفع الأطفال إلى تعلم قواعد النحو والترقيم على أساس أنهم سوف يحتاجون إليها فيما بعد فعليهم أن يتعلموها الآن ذلك لأنهم يدركون هذا كما يدركه المدرس، ولذلك فعلى المدرس أن يكون نشطا يقظا باعتباره ملاحظا لنمو الأطفال ليدرك الوقت الذي ينبغي أن يدرب فيه تلميذ أو مجموعة من التلاميذ، ليدرك الوقت الذي ينبغي أن يدرب فيه الفصل كله على قواعد النحو والترقيم التي لا يعرفونها والتي يشعرون بالحاجة إلى معرفتها الآن، وليدربوا على تهجي الكلمات التي يحتاجون إلى استعمالها الآن، وهم في حاجة إلى أن يكتبوا بخط واضح يستطيع الآخرون قراءته.

وتدرك المدرسة الحديثة أن الاقتصار على القراءة والكتابة والحساب يعتبر فيها ضيقا لحاجات النشأ في الوقت الحاضر فهناك أكثر من ثلاث أدوات أساسية للذكاء والتفاهم، خذ مسألة الكلام فهو أقدم نتاج العقل الإنساني وأكثر وسائل التفاهم عموما وانتشاراً وعن طريقة ظهرت دوافعنا الابتكارية العميقة وتطورت، ونحن نريد أن «نتحدث» عنه ومع ذلك فقد

كاد أن ينعدم اهتمام تربية عام ١٩٠٠ به، مع استثناء أن المدرسين كانوا متحفزين لقمعه فكانوا يقولون «الكلام ممنوع الآن. حافظ على السكون».

والمدرسون بالمدارس الحديثة ليسوا بعيدين عن الواقع بيحث يهربون من مواجهة الطبيعة على هذا النحو، وهم يعرفون أنه ينبغي أن يتعلم التلاميذ الكلام بطريقة سليمة قبل أن يكتبوا كتابة سليمة، وهم يعرفون أننا سنستلم في حياتنا أكثر مما سنكتب وأن المدارس ينبغي أن تعلمنا إجادة الكلام ولا يعني هذا أن يتعلموا المناقشة العامة في الفصول فحسب، بل يعني إتاحة فرصة للمناقشة في مجموعات صغيرة من التلاميذ، وإتاحة الفرصة الاجتماعية للاشتراك في مناقشة المسائل الهامة في اجتماعات نادي أو مجلس، وكذلك إتاحة الفرص الكثيرة لكي يظهر الطفل أمام أنداده في الحملات السياسية المدرسية، أو في المناقشات التي تدور حول المسائل العلمية والثقافية، وهذا يعني إتاحة الفرصة له لكي يخرج عن المدرسة ويتحدث في الأندية وأمام جماعات الكبار الأخرى، وقد حظى الكلام في المدرسة الحديثة وحدها بما يستحق من اهتمام، مع أنه أقدم وسائل التفاهم.

وقد اتسع مفهوم القراءة والكتابة الحساب بطريقة أخرى، ففيما يتصل بمسألة القراءة كان المدرسون يرون في وقت ما أنه ينبغي أن تعلم المدارس الأطفال القراءة حتى يصلوا إلى الفرقة السادسة فهم بعد ذلك لن يتطلبوا اهتماما آخر بالقراءة، وتصبح العملية بعد ذلك الوقت استيعابا للمعلومات من الكتب، ولكن القول بأن إنسانا ما يتوقف تعلمه للقراءة

في وقت ما أمر مشكوك فيه إذ أن معظمنا يتعلم كل أسبوع كلمات جديدة، وتستمر عملية تعلم القراءة في المدرسة الثانوية الحديثة وهذا أمر معقول، فتعلم قراءة العلوم الطبيعية يختلف عن تعلم قراءة العلوم الرياضية، وتعلم قراءة التاريخ يختلف عن تعلم قراءة الأدب، وقد انفسح ميدان الكفاءة في هذه المواد بالمدرسة الثانوية وصاحب هذا اتساع ميدان الكفاءة في قراءتها، وهناك فضلاعن ذلك طرق كثيرة مختلفة للقراءة بحيث يصبح من المستحيل تعليمها كلها في القراءة الست الأولى، حتى ولو كان هؤلاء الصغار الذين لم ينضجوا بعد على استعداد لذلك.

فهناك قراءة المتعة وهناك ما نسميه بالتصفح، ولم يتعلم إنسان في الغالب هذه الطريقة في مدرسة ١٩٠٠، وهناك قراءة لاستخلاص التفاصيل الأساسية ونسميها الدراسة وهي لا تميل أية قراءة تعلمتها في مدرسة ١٩٠٠، وبقى نوع آخر من القراءة ينبغي أن نمارسه وهو قراءة الصحف ويختلف عن قراءة أحداث التاريخ الجارية لنقدها وتقديرها، وثمة طريقة لقراءة أجود رواية في ساعتين وطريقة أخرى لقراءة رواية رائعة في أسابيع كثيرة، فهناك طرق كثيرة للقراءة وقد أدركت المدارس الحديث ذلك، ولذلك فهي تعلم القراءة كلما ظهرت حاجة إلى ذلك.

طرق التدريس العلمية

تقوم طريقة التدريس في المدارس الحديثة على أسس علمية فقد ظهر أن تدريب التلاميذ في أوقات غير مناسبة مضيعة للوقت، فتعليم تلاميذ الفرقة الرابعة القسمة المطولة مثلا قبل أن يتعلموا موضوعات أخرى من

الحساب قد يتطلب إعادة تعليمهم إياها فيما بعد، ولكن تلاميذ الفرقة الخامسة أكثر نضجا فتناسبهم القسمة المطولة، ويتعلمونها على نحو أسرع دون حاجة إلى إعادة تعليمها مرة ثانية فيما بعد، وهذا هوالسبب في أن المدرسة الحديثة قد عدلت في مراحل تعليم القراءة والكتابة والحساب.

وقد ظهر أن التلاميذ يختلفون اختلافا هائلا في أنواع التدريب المختلفة التي يحتاجون إليها، فبعض التلاميذ يفهمون المبتدأ والخبر بسرعة ولا يحتاجون إلى مزيد من التدريب أو الممارسة على هذه القاعدة ولكن هؤلاء التلاميذ أنفسهم قد يحتاجون إلى مزيد من الممارسة عند تعلمهم تكوين الجمل، وعلى ذلك فمما يتنافى مع حقائق العلم، كما أنه من العجز، أن نجعل جميع تلاميذ الفصل يقومون بأنواع واحدة من التمارين في وقت واحد.

وقد اكتشف الباحثون أن ممارسة مهارتين أو أكثر في وقت واحد بالتبادل، يؤدي إلى أن تقوى كل واحدة منها الأخرى، وقد استشهدنا بطريقتنا الحديثة لنوضح كيف يتم هذا.

تتوقع المدرسة الحديثة أن يتعلم الأطفال المباديء الأولى للقراءة والكتابة بسرعة على قدر ما يستطيع كل فرد، ومما يساعد على ذلك مساعدة كبيرة من الناحية العملية استطاعة الأطفال أن يكتبوا عما يقرأون، وأن يقرأوا بدورهم ما يكتبه الآخرون، وبهذه الطريقة تساعد القراءة والكتابة، وتساعد الكتابة على التقدم في القراءة، ولكن الكتابة بالخط المتصل لا تناسب هذا الغرض أولاً: لأن عضلات أصابع الأطفال

الصغار لم تنم نمواً يكفي للقيام بالحركات الدقيقة التي تتطلبها الكتابة بالخط المتصل وهذا يعني أن تتخلف الكتابة عن القراءة، وثانياً: يؤدي استخدام الكتابة بالحروف المتصلة إلى كثير من الاضطراب في عقول الأطفال الصغار لأنهم قد أخبروا أن كلمة Girl التي رأوها مطبوعة في الكتاب هي نفس كلمة grilالتي طلب إليهم كتابتها مع أن إحدى الكلمتين لا تشبه الأخرى في نظر الأطفال، وتقوم الكتابة غير المطبوعة على حركات قليلة بسيطة للأصابع وفيها مزية أخرى هي مماثلتها للكلمات المطبوعة التي يتعلم الأطفال قراءتها وكلمة Girl هي كلمة gril وحين تنمو العضلات فيما بعد، وبعد التغلب على الصعوبات الأولى في تعلم القراءة ينتقل الطفل من كتابة الخط المطبوع تدريجيا إلى كتابة الخط المتصل.

وتنطبق نفس هذه الأساليب في المدرسة الحديثة على تعلم أوجه المهارة الأخرى وتعلم المواد– من حيث ربطها بالحياة والواقع من ناحية، ومن حيث توسيع مجال المهارات والمواد واستعمالها بطريقة مثمرة من ناحية أخرى، ومن ناحية ربطها أيضا بالمعرفة العلمية الخاصة بالمشكلات التي تتضمنها الدراسة، وعلى هذا فإن الوعي الحسابي يتكون مبكرا في حياة الناشئة عن طريق تعريفهم أولاً: بالمواقف الحقيقية التي يستعملون فهيا عمليات الجمع والطرح لا عن طريق تدريبهم على هذه العمليات بطريقة مباشرة، ومعنى هذا أن أطفال الفرقة الأولى سيقضون وقتهم يلعبون ألعابا تقوم على العد، وعلى قياس سعة الحجرة التي يوجدون فيها وطولها وعلى تقدير أحجام الكتل الخشبية وغيرها من الأشياء، ويتبنون فيها كذلك

الاختلافات بين هذه التل ويزنون أنفسهم، ويسجلون الزيادة التي تطرأ على حجومهم، ويقيسون أطوالهم بالبوصات، ويسجلون ما يوجد من اختلاف في الطول بين جون وآلس مثلا.. و«بعبارة أخرى فإنهم سيتعلمون التفكير في العالم المحيط بهم بلغة الأرقام ويفكرون في ما يوجد فيه من أشياء تفكيرا كميا.. ومعنى هذا أيضا أن ابنك قد لا يبدأ بجمع أعمدة الأرقام بطريقة شكلية كما فعلت أنت عندما ذهبت إلى المدرسة.

بل إنه عندما يصل إلى الفرقة الثالثة أو الرابعة سوف لا يقتصر عمله على ما قمت به أنت عندما دخلت المدرسة بل إنه سوف يكون لديه أيضا تفهما أفضل لمعنى جمع الأرقام وطرحها، وقد أظهرت التجارب العديدة صدق هذا القول.

وكانت مادة كالجغرافية في مدرسة ١٩٠٠ عبارة عن حفظ فقرات قليلة من كتاب واحد، مع أن الجغرافية علم يدور حول الحياة، فلماذا تدرس بهذه الصورة الميتة الجافة ونحن نجد في المدرسة الحديثة أن الكتب العديدةوالصور المتحركة، وبناء نماذج المدن والمزارع ورسم الخرائط، وتمثيل بعض نواحي الحياة التي يحياها الأطفال في البلاد الأخرى، وأعداد الكتيبات المصوة، تساهم في إثارة الحيوية في تدريس الجغرافية، ولما كان التاريخ والجغرافية وجهان لشيء واحد– هذا الشيء هو قصة كفاح الإنسان ونجاحه في أثناد تأثره بقوى الطبيعة وقيودها، فإنهما يدرسان في العادة مرتبطين معا.

ويقرأ الأطفال بكثرة وعلى نطاق واسع، فإن تلاميذ الفصل كله لا

يقرأون في كتاب واحد، بل يقرأون في كتب مختلفة حسب سرعتهم في القراءة، فهذا تلميذ يحاول استخراج معلومات عن الهنود، وهذا آخر يقرأ عن ناحية من نواحي العلم، وهذا ثالث يقرأ في ميدان يميل إليه ميلا خاصا ويشعر بمغزاه بالنسبة له، أو يقرأ فيه لأنه يحتاج إلى استخلاص بعض الحقائق التي تفيده، وتكون معظم هذه القراءة صامتة ذلك أن هذا هو نوع القراءة الذي يمارسه الكبار ليحصلوا على المعلومات، ومادة القراءة متنوعة تنوعا عظيما، فهناك الكتب المدرسية الأساسية، وهناك الكتب الإضافية، وهناك الكتب القصصية، والكتب التي تشمل الحقائق، وهناك المراجع والكتب المصورة، والكتيبات الصغيرة، والمجلات والصحف.

ويعتبر هذا الاتجاه وثبة عظيمة تبعد عنا عن تدريس سنة ١٩٠٠ الذي كان يقوم على كتاب مدرسي وحيث كان لكل طفل نسخة من نفس كتاب المطالعة وحيث لم يكن هناك إلا اهتمام ضئيل بما يوجد بين التلاميذ من فروق من حيث الهدف الذي يهدف إليه كل منهم والحاجة التي يحسها ومن حيث نشأته واستعداده، وهؤلاء الذين لم يستطيعوا هضم هذا الغذاء الوحيد «المادة الدراسية» قد أصيبوا بسوء هضم تربوي مستمر «تخلف مستمر»، أما هؤلاء الذين دفعوا إلى عدم الاكتفاء بهذا الطعام البسط فإنهم أصيبوا بضعف بسبب نقص في الفيتامينات، وقد كان التدريس أمرا سهلا بمقارنته بما يوجد الآن، كما كان رخيصا ذلك أن أي شخص مدرب تدريبا بسيطا كان يمكنه القيام بعملية التدريس بهذه الطريقة، وكانت العناصرالتعليمية قليلة، وكانت طريقة التعليم المتبعة تقوم على اختيار جون وهنري وسالي وجان الواحد بعد الآخر لقراءة ثلاث جمل من الكتاب

بصوت مسموع بينما يضيع باقي تلاميذ الفصل وقتهم في انتظار دورهم، وهذه هي الطريقة المدرسية التي لا توجد في أي مكان يوجد فيه نوع من السلوك الفعال في الحصول على المعلومات.

ولا عجب في أن ينجح الكثيرون في الحياة على الرغم من فشلهم في المدرسة، ولاعجب في أن يحدث العكس ولكن العجب كل العجب هو أن مدارس كهذه قد تؤدي إلى إنماء الميل نحو التعليم عند بعض التلاميذ.

الفصل الرابع

الكشف عن مواهب التلاميذ

يحتاج عالمنا الحاضر إلى عشرات الآلاف من القدرات الإنسانية المختلفة إذا رغبنا في تسيير دفة شئونه، ذلك أنه لم تظهر فترة في التاريخ وجدت فيها أشياء كثيرة تحتاج إلى عمل متقن مثل هذه الفترة التي يعيش فيها، فمنذ بداية هذا القرن أدت الوسائل الاجتماعية والميكانيكية والعلمية والتجارية والفنية الجديدة إلى ظهور مواهب تتطلبها الحياة كما يتطلبهاالعمل في مدينتنا، وأظهر الناس من المواهب ما يكاد يكون حلما منذ قرن أو قرنين من الزمان ولم تعد توجد آلة جديدة، أو عملية جديدة إلا كان هناك شخص خبير بها.

ولم يعد هناك شيء قديم وآخر جديد، وإنما هناك بعض الناس الذين يفضلون البعض الآخر في استعمال هذا الشيء أوذاك، فالأفراد يختلفون اختلافا عظيما في طريقة عمل كل شيء من هذه الأشياء التي تحتاج إلى عملها في عالمنا.

بل إن مدى اختلاف الناس في قدرتهم على عمل أبسط الأعمال يعتبر أعظم بكثير مما يوجد من اختلاف في الطول بين أقصر قزم وأطول عملاق.

ويختلف الأفراد أيضا فيما يتصل بتلك الأشياءالخاصة التي يجيدون

عملها، وأن ما يعتبر غذاء لإنسان يعتبر سما لآخر لا يصدق هذا القول على شيء أكثر مما يصدق الآن على تحليل قدرات الأفراد، فهنالك العلماء الذين يدرسون ويفسرون ما عمله آخرون، وهناك من يقومون بالأعمال اليدوية، وهناك من يبتكر، وهناك من يطبق الأفكار في الميدان العملي، ويحتمل أن يصبح القادة في ميدان ما، أتباع في ميدان آخر ذلك أنه لا يوجد شخص يعتبر خبيرا بكل شيء، ومثل هذا يصدق على الأطفال في المدرسة.

وتعتبر المدرسة التي لا تراعي هذه الحقائق الآن متخلفة عن زمنها، وتعتبر إحدى مشكلات المدرس الأساسية اكتشاف الميول الخاصة لكل فرد نحو الحياة والعمل وسر فوزه، وفهم إمكانيات النمو عنده وذلك عن طريق أفضل الطرق التي تصل لذلك، ويلي هذا الاكتشاف توفير أخصب موقف وأحسن بيئة مواتية لتحقيق هذه المواهب تحقيقا كبيرا، ومتى تحققت هذه الأهداف فإنها تجلب سعادة الفرد وتحقق نجاحه وتزيد كفاءتنا إلى أقصى فاعلية ممكنة.

والمدرسة الحديثة تزيد من نجاحها مع الأفراد زيادة مستمرة عن طريق الأشياء المنوعة التي تقدمها، وقد أدرك المدرسون المحدثون أن ميادين الكفاءة الإنسانية قد تزايدت تزايدا هائلا في الخمسين سنة لاأخيرة حتى أنه لم يعد في استطاعة التربية التي عاشت في الماضي السحيق وحده أن تعد النشأ لآلاف الأعمال التي ينبغي أن تتم في اتقان في زمننا هذا، وأدركوا كذلك أن تنوع الأفراد فيما يحصلون وعدم تماثلهم فيه يعد من أحسن المباديء نفعا لبناء شعب أكثر كفاءة، كما أدركوا أن كل فرد تقريبا يمكن

أن يجيد شيئا إجادة تامة أو يقترب من هذه الإجادة إذا أتيحت له الفرصة لينمي استعداده.

وهذه الإدراكات توضح العدد الهائل من الفرص التي يمكن للمدارس الحديثة أن توفرها للنشأ – فرص يجربون فيها مواهبهم، وتكبر المدرسة الحديثة تدريجيا وتصبح مختبرا للميول ومنميا لها لفترة تستمر اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة، فالأطفال في رياض الأطفال يستخدمون كتلا من الخشب في البناء ويتناولون آلات ولعبا بسيطة، وينشيء الأطفال في السنة الثانية متجرا يضعون فيه بضائع ويقومون بتسجيلها ويدرس الأطفال في السنة الثالثة عادات الحيوانات دراسة مباشرة ويعنون بانماء النباتات، ويزور الأطفال في السنة الرابعة المصانع وأماكن العمل المحلية ليحصلوا على معلومات أساسية مباشرة قد تثمر فيما بعد فتصبح أساسا لاختيار المهنة، ويتعلم الأطفال في السنة الخامسة تحمل بعض المسئوليات والقدرة على النشر بإصدار صحيفة مدرسية دائمة، ويمارس الأطفال في السنة السادسة والسابعة عمليات السلطة القضائية أو يقلدون جماعة الأمم المتحدة، ويقوم الأطفال في المدرسة الإعدادية بطلاء الحوائط ونسج قطع من القماش وصناعة سبائك من الألمنيوم– ويتعلم البنون والبنات في المدرسة الثانوية رعاية الأطفال في مدرسة الحضانة أو يعرضون مهارتهم في التصوير أو يكتسبون خبرة بالعمل في متاجر أو مصانع أو يكونون جمعية مدرسية للتأمين أو ينشئون محركات كهربائية والتلاميذ في المدارس الابتدائية والثانوية يقرأون ويكتبون أيضا الشيء الكثير.

ولكنهم في هذا يسايرون مستوى قدراتهم وهم يعملون في الميادين

التي تناسب كفاءاتهم، وهذه ليست إلا عينات من الخبرات الكثيرة المتنوعة التي توفرها الأندية والفصول في المدارس الحديثة والتي بواسطتها تختبر وتنمي قدرات النشأ الخاصة والهدف من هذه الخبرات من ناحية مهني ومن ناحية أخرى ثقافي، ومعنى كلمة ثقافة هنا أعم من معناها القديم، والهدف ثقافي أيضا بمعنى أن الشخص الفعال ينبغي أن يفهم الظروف التي يعيش فيها الآن [1]

وكانت مدارسنا حتى في البداية ذات هدف مهني، وكانت هذه المهنة هي الكهنوت وكانت اللاتينية واليونانية والعبرية وسائل مناسبة لإعداد رجال الكهنوت، إلا أنه سرعان ما أصبحت دراسة القانون هدفا في مدارسنا الأولى.

وذلك أننا كنا دولة ناشئة «أمريكا» ذات كيان قانني جديد وقليل من درب على تفسيره، وأصبحت معرفة المواد الكلاسيكية واللغة اللاتينية – أدوات أساسية للتعلم –هامة بالنسبة للقانون أهميتها بالنسبة للكهنوت ولم يصبح الإعداد للطب أيضا هدفاً في المدرسة وفي الجامعة إلا بعد مضى

([1])معنى كلمة ثقافة هنا هو التعريف الحديث الذي وصل إليه علماء الاجتماع، فالثقافة تشمل العناصر المختلفة التي صنعها الإنسان لتنظيم حياته في المجتمع، وهي تشمل مثلا طرفي الإنتاج والأساليب العلمية وغير العلمية وأنواع المعرفة، والعادات والتقاليد، ووسائل التبادل الفكري والنظم العائلية والتربوية والاقتصادية والسياسية والقضائية، والمعاني المختلفة للحقوق والواجبات والمسئوليات، ومن أهم أهداف التربية باعتبارها جزء متكامل من أجزاء الثقافة أن تحافظ على عناصر الثقافة وتعمل على تحسينها وذلك بأن توجه المدرسة النشأ توجيهاً يعرفهم بعناصر هذه الثقافة ويسمح لهم بنقدها وتحسينها وتعديلها، وهذا يتطلب أن تستمد المدرسة برامجها وموادها من واقع الحياة التي يعيش فيها التلاميذ.

بعض الوقت [1]

وأصبح الإعداد للكهنوت، أو للقانون أو للطب «أو لميدان التدريس نفسه» السبب الذي يدفع الشخص إلى الالتحاق بالمدرسة أو الجامعة، وكان الآباء ينظرون بعين الرضا الملحوظ إذا ما استطاع أبناؤهم النجاح في مثل هذه المدرسة والنجاح في التدريب الجامعب، وكان يذهب إلى المدرسة في معظم الأحيان هؤلاء الذين كانوا يميلون إلى أن يصبحوا علماء، أما اليوم فترى جميع الأطفال يذهبون إلى المدرسة، العلماء والعمال والمبتكرون، والقادة، والأتباع، والنظريون والعمليون على السواء.

ولكن مازال نوع التعليم السائد في مدارسنا العامة منذ عهد قريب جدا يهتم بالدراسات التي كانت قد نظمت من أجل إعداد رجال الدين والمحامين والأطباء والمدرسين على الرغم من أن حاجتنا إلى هذه المهن قد اشبعت بمضى الزمن إشباعا مناسبا، وباختصار كان جميع التلاميذ يدرسون مواد قصد بها في الأصل الإعداد لعدد قليل من المهن – بغض النظر عن المهن الجديدة التي كانوا يميلون إليها – ويحتمل أن تكون هذه المواد قاصرة الآن حتى بالنسبة للإعداد لهذه المهن وذلك إذا راعينا ما طرأ على

---

[1] يرجع هذا النوع من التعليم إلى أيام البطالمة في مصر «بعد سنة ٣٢٣ ق.م» وذلك عندما ظهرت المدارس المنظمة في الإسكندرية التي أصبحت في ذلك الوقت مركز التعليم والدراسة البحث، وكان التعليم في تلك المدارس يقوم على تعليم الكتب الكلاسيكية والكتب اليمنية وتعليم اللاتينية واليونانية، وكان يقتصر على الأشخاص الذين يرغبون في الوظائف الراقية مثل الوظائف الدينية وكانت طرقه تهدف إلى استيعاب ما في الكتب وإلى شحذ الذاكرة وتدريب العقل، ومن هنا نشأت فكرة التعليم الأكاديمي النظري الذي كان يتمتع به الفلاسفة والأذكياء والأغنياء، بينما كان أفراد الشعب يتعلمون الحرف المختلفة عن طريق مساهمتهم في الأعمال المختلفة بدون توجيه مقصود من جانب المدرسة.

حياتنا من تغيرات.

فلا عجب إذا كانت المدرسة الحديثة المتطورة في ضوء الحاجات المتغيرة الفهم المتغير قد طورت برنامجا يبدو غريبا في نظر أولئك الذين لا يألفون أغراض المدرسة الحديثة، وقد يبدو مصنع حديث للصلب أو متجر كبير غريباً في نظر شخص لا يزال متمسكا بنظريته التي كونها منذ خمس وعشرين سنة ماضية.

وعندما يفكر شخص ما في المدرسة الثانوية الحديثة فإنه إن لم يكن يألف ما يوجد داخل المدرسة الحديثة، فسرعان ما يفهم المدرسة على أنها المواد الدراسية الأكاديمية التي احتلت مكانا تقليديا والتي كانت لها أسبقية تقليدية في أذهان كثير من المربين، وفي أذهان الطلبة والآباء وأفراد الشعب، ويمضي في تفكيره معتبرا أن وظيفة المدرسة أولا وقبل كل شيء إعداد العلماء في عالم يحتاج إلى العمال والعلماء على السواء، وهو يميل إلى تفضيل المواد الدراسية على الأشياء الجديدة كالموسيقى والفن، والتدبير المنزلي والأعمال التجارية، إن الخطر الذي نراه في تقديس المواد الأكاديمية كجزء مهم من المدرسة ليس في كون هذه المواد غير ذات المواد الأكاديمية كجزء مهم من المدرسة ليس في كون هذه المواد غير ذات قيمة لأسباب معينة أو لأن الحياة التي تقوم عليها لا تعتبر مثار إعجاب، أو لأن المدرسة الحديثة تمتنع عن تعليمها، بل إن الخطر يكمن في افتراض أن هذه المواد هي كل ما نحتاج إليه، أو في افتراض أن النجاح في هذه المواد وحده ويمكن أن ينبئنا بالنجاح والسعادة في المستقبل وبأن صغارنا سيصبحون أشخاصا ذوي أهمية في الحياة.

إن الغذاء التعليمي في مدرسة عام ١٩٠٠ يحتوى على مواد وضعت أصلا لرجال الدين والمحامين والأطباء والمدرسين، ويتطلب تمثله نوعا من القدرة لا تتصل اتصالا وثيقا بكثير من القدرات التي يحتاج إليها النجاح في الحياة، وقد سمعنا جميعا عن الفيلسوف الذي يعيش في برج عاجي، ونحن نعرف كلنا هؤلاء الذين ينجحون في الحياة على الرغم من إخفاقهم في المدرسة، ويحتاج النجاح في مدرسة عام ١٩٠٠ إلى نوع من القدرة اللفظية أي نوع من الذكاء يظهر على أفضل نحو في قراءة الكلمات واسترجاعها والتفكير فيها، غير أن رجال الدين عندنا استخدموا الكلمات وأفرط محامونا في استخدامها، ولم يكن أطباؤنا يستطيعون التقدم بدون محصول كبير منها يمكنهم من تسمية الأمراض وأنواع العلاج التي يقومون بها، وبذلك أصبحت مدارسنا ميادين للتدريب على استخدام الألفاظ، والألفاظ من أهم الأشياء التي ابتكرها الإنسان ولكنها حين تصبح غرضا في ذاتها تقتل الفطنة لدى بعض الناس المتوسطين الذين لم يبلغوا حدا كبيرا من الذكاء [١].

---

(١)إن نشأة التعليم المدرسي الذي كان يهدف إلى تدريب العقل عن طريق استذكار ما يوجد في الكتب أثر على نظريات التربية وطرقها في العصور المختلفة، ذلك أن التعليم أصبح صناعة كلام بمعنى أنه يقوم على قراءة التلميذ للكتب وشرح المدرس ما يوجد في هذه الكتب: وقد أد ذلك إلى الفصل بين الناحية النظرية والناحية العملية، والفصل بين نشاط الجسم ونشاط العقل، واعتبار النظام الكون التام الذي يخلو من نشاط المتعلم.

ولعل من أهم الاختلافات التي توجد بين التربية التقليدية والتربية التقدمية هو أن الثانية لا تفصل بين الناحية النظرية والناحية العملية في التعليم وأنها تعتبر التمليذ كائن حى نشط وأنها تؤكد أهمية النشاط الجسماني والنشاط العقلي في عملية التدريس.

إننا لا نحتقر الذكاء اللفظي ولا نقلل من شأنه حين نقول إن هناك طرقا أخرى تساويه في الأهمية ولا تقل شأنا عنه، فهناك الذكاء الاجتماعي والذكاء الميكانيكي والذكاء الفني، وتعبيرات أخرى عن الذكاء نجدها نامية نمواً كبيراً لدى الأفراد على اختلافهم مع تفاوت في الدرجة، ونحن جميعا نعرف أننا نرى شخصاً غير متعلم وقدرته على قراءة الكتب ليست عظيمة، وهو مع ذلك مقاول ناجح في أعمال البناء وقد يكون مرتفع الذكاء في الشراء والبيع أو في التعامل مع الناس أو في الإلمام بالمواد التي تدخل في أعمال البناء وقد يكون بعيد النظر مدركا لنتائج أعماله.

مساعدة كل تلميذ لبذل أقصى ما يستطيع

إن سر النجاح مع كل طفل يكون في ملاءمته لما يعمل، وتختلف المواد التي تستخدم في بناء المنازل عن تلك التي تدخل في صناعة الملابس كما تختلف عن تلك المواد التي تستخدم في عمل القاطرات، ولكننا في حاجة إلى بناء المنازل وصناعة الملابس والقاطرات جميعًا، ومن العبث والضياع أن نأخذ فتاة تصلح لأن تكون مديرة منزل لتعدها وتدربها على أنماط التدريب التي تلائم المحامي، أو نأخذ ولدًا يبدو أنه سيصبح ناجحاً في ميدان الأعمال لنحاول أن ندربه ونعده بما يناسب إعداد الطبيب.. ومع ذلك فهذا هو ما كانت تحاول التربية عام ١٩٠٠ أن تفعله، وهذا هو بالضبط التدريب الذي يتوقع الآباء أن يحظى أطفالهم به وهم يتوقعون هذا دون يقظة أو التفات.

وقد يكون ما يتوقعه الآباء من أطفالهم في المدرسة غير واقعي، وقد

يؤدي تقدير أهمية الذكاء اللفظي الخالص تقديراً عاليا أحيانا إلى مأساة، وأحيانا يؤدى الأمل في أن يتساوى الأطفال في التحصيل أي في دراسة نفس المواد والعمل على نيل نفس الدرجات اليت ينالها أبناء الجيران إلى تقييد خطوات «جوني» وربطها بخطوات الآخرين ويتغاضى عن الشواهد الواضحة التي تدل على أن مواهب جونى الخاصة تضعه بمعزل عن هؤلاء، والمقارنة بين وضع جوني المدرسي ووضع أبويه حينما كانا في المدرسة فيما مضى كالمقارنة بين «الجبن والآيس كريم» لكل منهما طعم لذيذ ولكنهما مختلفان تماما، كل منهما فيه زبد ولكنهما نتيجة عميلتين مختلفتين:

من السهل أن نقع في مغاطة عندما نقدر التقدم المدرسي لطفل حديث يعيش في ظروف اجتماعية حديثة في مدرسة حديثة على أساس طريقة تفكير صادرة عن نوع من التربية لم يعد صالحا إطلاقا منذ نصف قرن، وتتضمن مظاهر هذا الخطأ من جانب الأب ما يأتي: أريد أن يحضر جوني كتبه معه إلى البيت، لأنى كنت أفعل هذا منذ البداية الأولى لذهابي إلى المدرسة.

أريده أن يحصل على الأقل على درجة جيد لأن ابن جارنا قد حصل على هذه الدرجة، أريد أن يكون ممتازا في الجبر فقد كانت المادة التي فضلها، وأن يتخرج في المدرسة الثانوية، ويذهب إلى الكلية لأنى لا أريد أن يقوم بعمل شاق كما فعلت، أريد منه أن يدرس القانون ليتتبع خطأي وأن يسير سيرا أكاديميا فيدرس اللاتينية والجبر والتاريخ والأدب لأني أريد أن يكون رجلا حسنت تربيته، رجلا مهذبا وهو يستطيع أن يفعل ذلك إذا حاول فحسب وإذا درس وإذا كان مهتما بشغوفا بما يدرس.

ومن ناحية أخرى، من علائم الإيثار ألا يثير الآباء صخبا بصدد ما يريدون لأبنائهم أن يعملوا أو يكونوا، وذلك عندما يفكرون بجد ويتساءلون عن أفضل عمل لأبنائهم في ضوء قدراتهم الخاصة ومواهبهم وخبراتهم وحاجاتهم ومن دلائل الحكمة ألا نفصح عن خيبتنا الكبيرة في الأطفال أو قلقنا عليهم أو ضيقنا بهم لأن هذا يشعر يشعرهم بطريقة ما بأنهم ليسوا أكفاء ولا يمكن أن يثق فيهم آباؤهم لأن درجاتهم ليست كما يريدون لهم.

وقد تتيح هذه الحكمة لطفل معين ألا يهتم بالمواد الموجودة في الكتب اهتماما دقيقا أثناء وجوده بالمنزل ويكفي هذا لأن تقول ثم ماذا؟ هناك ميادين أخرى للكفاءة.. وفي الحق أنه يمكن للطفل الذي يتجه استعداده إلى اتجاه آخر غير الاتجاه الأكاديمي، أن ينمو كشخص ممتاز إذا عومل معاملة صحيحة، وإذا ما قيل أبوه ما يستطيع عمله ونوع هذا العمل قبولاً كافياً، وإذا استثير استثارة سليمة من جانب المدرسين الذين لا يعتقدون أن حفظ الكتب هو المفتاح الوحيد للتربية.

إن مفهوم المستويات، والدرجات المدرسية، والامتحانات القائمة على أفكارها محدودة عن وسائل التحصيل، قد نمت في أحضان تربية ١٩٠٠ ونتجت عنها تلك التربية التي كانت تعتقد أن المهارة في عدد من المواد الدراسية التي تتطلب إجادتها ذكاء لفظيا خالصا تساعد على تكيف الفرد في الحياة، وكانت تعتقد أن الأفراد الذين يختلفون في استعداداتهم اختلافا واضحا، يستطيعون أن يعدوا لأي مكان في مجتمعنا المتزايد في تعقيده بواسطة طريقة واحدة غير متغيرة، والواقع أن قياس قدرات الجميع في ضوء مجموعة من المستويات المتشابهة يعتبر قياسا غير واقعي، إذ أنها لا

تدرك أن القدرات الفردية تختلف في وسائل كثيرة أكثر مما تشابهه، ولا تدرك أن أي مستوى يعتبر مناسبا للشخص المتوسط قد يكون سهلا جدا بالنسبة للبعض وصعبا جدا بالنسبة للبعض الآخر، أنها تخفق ف إدراك أنك لا تستطيع تقسيم الناس وترتيبهم على أساس المتوسطات، ذلك أن فكرة الرجل المتوسط خرافة إحصائية، وفضلا عن ذلك فكثيرا ما يضفي الناس على المدرسين الذين يحكمون على التلميذ بكلمات بسيطة مثل «نجح» أو «فشل» قوة إلهية، والمدرسون المحنكون لا يدعون مثل هذه القوة بسهولة.

ولهذه الأسباب بدأت المدارس الحديثة في تجريب أكثر إنتاجا وأكثر واقعية لتقدير النشء واستثارته، وتعتبر هذه الطرق علمية، كالتقديرات القائمة على الاختبارات الفنية التي تعطى صورة لجميع قدرات التلميذ بدلا من الحكم عليه بالإشارة إلى قليل منها، وهناك طرق أخرى غير شكلية مثل: الملاحظات، الخطابات، اجتماعات الآباء، البطاقات الشاملة، حيث لا تعتبر كلمه جيد أو رديء، أو نجح أو فشل كلمات نهائية، وحيث لا تعتبر الكلمة نهائية – إدانة أو حكما – بل إنها تعتبر وصفا لنمو التلميذ أثناء سنوات من الملاحظة الدقيقة لخبراته في كثير من ميادين النشاط والدراسة.

وهناك طرق كثيرة تظهر فيها الكفاءة، كما أن هناك أشياء منوعة يعملها الناس، والنجاح في هذا العدد القليل الناقص من المواد الدراسية التي توجد في برنامج مدرسة من طراز ١٩٠٠ لا يقيس النجاح في الحياة قياسا حسنا، غير أن النجاح في المدرسة يمكن أن ينبيء عن النجاح في

الحياة حينما تكون المدرسة أكثر واقعية، وحينما تكون مدركة لتنوع المواهب، وعندما يحتوى برنامجها على عينات تمن هذه المواد التي توجد في الحياة، وعندما تعمل على تنميتها على أوسع نطاق ممكن، وحين توفر خبرات في الموسيقى والطلاء والتمثيليات والحياكة والتركيب والحديث إلى عدد من الناس في مكان عام، وجمع الأخبار والبحث في الكتب، والطهي وقرض الشعر ودراسة الطبيعة وعمل السجاجيد، وصناعة الفخار، وتعلم الطباعة ومقابلة الناس، وصناعة المعادن والطيران وزراعة النباتات، ومسح الأرض، والترفيه وتزيين المنزل والشراء والبيع ورصلاح الراديو وتركيبه.. ويمكن أن تمضي القائمة إلى غير نهاية.

غير أن وصف قدرات الشخص على عمل كل هذه الأشياء لا يمكن تبسيطه تبسيطا زائدا في أ، ب، ج، ولا نستطيع أن نتحكم في عمر الإنسان بقولنا «ناجح» أو «راسب».

وكثيرا ما كانت الحال على هذا النحو في الماضي، وقد وجدت مجموعة من القيود التربوية البسيطة وكانت هذه القيود كالغربال الذي يفرز الحصا فلا يمر من خروقه الكثير، ولم تكن هذه القيود صادرة عن حكم إنسان بل صدرت عن حكم النظام وبمقتضاه مما أدى إلى ترك كثيرين للمدرسة في السنة السادسة أو الثامنة ذلك لأن ما تقدمه لا يتناسب شخصياتهم وقدراتهم، وهذا يدل على خسارة اجتماعية وهي ضياع الوقت الذي أمضوه في المدارس دون أن يفيدوا منه شيئا، وهم يتركون المدرسة لا لعجز قدراتهم، بل لأن هذه المدرسة من طراز ١٩٠٠ وهذا الطراز تعوزه التربية التي تنمي هذه الأنواع نموا تاما ولأنه قد افترض أن طرق التربية التي تنجح

مع قليل من التلاميذ تصلح للجميع.

ولكي تنجح المدرسة في هذا الاتجاه لابد أن تدرك أن أعداد الكفاءات التي تناسب العالم الحاضر وعالم المستقبل يتطلب اختبار عدد هائل من طرق العمل، ولابد أن تدرك أيضا أن الإعداد للحياة السعيدة يتطلب منا أن ننمي في كل تلميذ مواهبه الأساسية، وتعتبر المدرسة التي من طراز ١٩٠٠ برجا عاجيا متخلفا عن العالم بالنسبة لتحقيق هذا الهدف.

ويقع رجال الأعمال في خطأ هو افتراضهم أن مجموعة من المعايير يمكن أن تطبق على جميع الخريجين لانتفاء من يختارونهم للعمل، والإنسان الذي يوظف خريجا من مدرسة ثانوية ويجده عاجزا عن القيام بالأعمال التي يطلب إليه أن يعملها في حاجة إلى أن يدرك أنه ليس جميع خريجي المدرسة لا يصلحون لهذا النوع من العمل، وينبغي أن تتطلب المدرسة من المتخرجين فيها أن يصلوا إلى مستوى معين في الهجاد، والمدارس في تحسن مستمر في هذه الأعمال التربوية البسيطة وهي أحسن بما كانت عليه في الماضي، غير أن رجل الأعمال مثله كمثل الأب ينبغي أن يتحقق من أن كل مستوى من مستويات الكفاءة موجود في كل جانب من جوانب النشاط الإنساني، وأن المواهب الخاصة المجتمعية التي يريدها من يؤجر من الأشخاص لا يمكن أن تنقش أو تطبع على دبلوم المدرسة الثانوية ولكنه يستطيع أن يكون أكثر اطمئنانا إذا ما عبر عن مطالبه لشخص مسئول في المدرسة، وإذا ما كان في المدارس الحديثة موجهون وظيفتهم أن يجدوا الشخص المناسب لصاحب العمل وأن يجدوا أيضا المكان المناسب

للتلميذ، أما أن يعين رجل الأعمال أول شاب يقدم إليه وفي يده دبلوم أو شهادة فلا يمكن أن يكون ذلك مرضيا له.

وقد يثار سؤال بهذا الصدد: إذا كانت إحدى الوظائف الكبرى للمدرسة الحديثة هي الكشف عن ميول الصغار، فلماذا تضيع سنوات طويلة في ممارسة الخبرات الفعلية؟ لماذا لا تطبق المدرسة مجموعة من اختبارات الميول؟ أليس في ذلك توفير في النفقات واقتصاد في الوقت؟ والمدرسة الحديثة تستخدم اختبارات الميول وتضع نتائجها موضع الاعتبار عند وصف إمكانيات كل تلميذ، والاتجاه السائد في المدرسة الحديثة هو أن تستفيد من كل وسيلة علمية أو غير علمية يمكن أن تساعد المدرسين على سبر أغوار التلميذ، غير أنه لا يوجد اختبار للميول مقنع إقناعاً تاماً، إنه من الممكن أن يكون الاختبار مرشدًا أو موجها يكشف عن إمكانيات التلميذ ولكنه لا يعطي إجابة نهائية، والعلم لا يزودنا بكل شيء عن الناس، ذلك أنهم أشق الموضوعات التي ينبغي على الإنسان نفسه أن يتناولها على الرغم من أن العلم أمدنا بالكثير عنهم، ومن غير المحتمل إلى حد كبير أن يوجد اختبار للميول في ميدان معين يمكن أن ينبأ بدقة عن قدرة الشخص على العمل في هذا الميدان، وباختصار توجد أنواع من القصور عديدة في الاختبارات.

والطريق الآخر هو إمداد الأفراد منذ رياض الأطفال إلى الجامعة بمناسبات كثيرة للخبرة في ميادين كثيرة مهنية وثقافية وعقلية في ميادين ابتكارية بحيث أن الأشياء التي يستطيع كل طفل أن يجيد عملها تظهر للمدرسين الذين اختيروا ولاحظوا نمو النشأ وليوجهونه بعناية وحرص،

والنشاط أو الدراسة التي تناسب طفلا قد لا تناسب طفلا آخر في نفس العمر، ويختلف التلاميذ على هذا النحو في القدرات الخاصة، وفي سرعة النمو، وفي معلوماتهم العامة، وفي خبرتهم الماضية، ويتباينون في صداقاتهم وفي عوافهم وآمالهم ودوافعهم، فمن غير المناسب إذن، بل ومن الحمق، وما يجافي الإنصاف، أن نحاول أن نوائم بين الأطفال جميعا وبين نمط تعليمي واحد، حتى لو كانت هذه المواءمة في الإمكان.

ولكل شيء وقت مناسب في حياة الطفل، وقد يختلف الوقت باختلاف الأطفال، وقد يختلف من الأب إلى الابن، وقد يجد كل طفل في المدرسة الحديثة ذات الخبرة الكثيرة المتنوعة والتي يضاف إلى خبراتها خبرات جديدة دائما – بغض النظر عن حاجته – الخبرة التي تناسبه عن طريق المحاولة والممارسة، أن عمل المدرس الماهر هو أن يخطط هذه الخبرات وأن يلائم بينها وبين الطفل في الوقت المناسب، والبستاني الماهر يعرف متى يشذب الزراع، ويعرف متى يرشه بالماء، ومتى يحرث الأرض ويعرف أيضا متى يسمد التربية وتختلف مواقيت هذه الأشياء باختلاف النباتات، ووفقا لما بلغته من عمر، وطبقا لطرقها في النمو، ولما حدث لها في الماضي، وبعبارة واحدة إن طريقة التدريس في المدرسة الحديثة تهدف إلى إنماء الأطفال كما ينمي البستاني الماهر النباتات – طريق الملاحظة الدقيقة وعن طريق الاهتمام البالغ، وهذه الطريقة ليست سهلة ميسورة، وحتى أفضل المدارس التي تعمل اليوم قد تفتقد هذه الطريقة بين الحين والآخر.

وتستطيع أية مدرسة أن تقوم بعملها على نحو أفضل بمساعدة الأب وبمساعدة المواطن المهتم بشئون التربية لأن المنزل والمدرسة والمجتمع المحلى

تكون موقفا تربويا واحدا ينمو فيه الطفل، والتعاون والاتصال بين الأب والمدرس أمر ضروري، والتعاون بين المدرس وبين المواطن المهتم بشئون التربية أمر ضروري أيضا، إن ئيس نادى المدرسة، والشخص الذي يهوي الفلك وينظم جماعة الفلك في المدرسة ورجل الأعمال الذي يوجه الصغار في طرق حيلتهم، كل هؤلاء يساعدون على توسيع مجال الخبرات التي يجدها البنون والبنات في الموقف التربوي، والأب الذي يرى أن يتاح لابنه أو لابنته الفرصة للقيام برحلات، وأن يتاح له زيارة المتاحف، وامتلاك الكتب والمجلات وأن يسمح له بالذهاب إلى حفلات.. إنما يزيد من خصوبة [1] حياة الطفل، وينبغى قبل كل شيء أن يكون اختيار هذه الخبرات نتيجة تشاور مشترك بين الآباء والمدرسين.

(1)يتضمن هذه أهمية تعاون الآباء وغيرهم من المهتمين بشئون التعليم مع المدرسة تعاوناً يهدف إلى توجيه نمو التلاميذ والنهوض بالبيئة التي يعيشون فيها، إلا أن ذلك يتطلب من المدرسة المصرية تحمل مسئولية تعريف الآباء بوظيفة التربية وتبصيرهم بالدور الذي يمكنهم القيام به وذلك عن طريق تنظيم وسائل مختلفة منها: مجالس الآباء وتبادل الزيارات والمساهمة في مراكز الخدمات الاجتماعية، والنشرات والإذاعة المدرسية.

الفصل الخامس

المدرسة والتغير في المجتمع

كان معظم سكان أمريكا في السنوات الأولى من هذا القرن يعيشون في الريف أو في مدن صغيرة، وفي تلك الفترة كان في استطاعة جميع الأطفال أثناء عودتهم من المدرسة إلى البيت، كما عبر عن ذلك لو نجفلو «أن يروا الأشياء في وضوح» ذلك أن المدينة كانت واضحة بمعنى أن العمل والحياة المهنية والاجتماعية كان من الممكن لجميع من ينظر إليها أن يراها وأن يفهمها.

فكان الأطفال يدركون عمل النجار لأنهم وقفوا وشاهدوا منزلاً يبني، فعرفوا من أن يجيء الخشب لأنهم رأوا جزوع الشجر وهي تقطع وتجر إلى حيث تنشر، ورأوا كذلك ورشة نشر الخشب هذه وشاهدوا كيف يقطع المنشار كتلة من الخشب إلى ألواح، ولم يكن هناك تنبيهات وتحذيرات تمنع الأطفال من مشاهدة ذلك، وعرفوا نفقات بناء المنزل، والمزايا النسبية للبناء المكون من خشب وطوب، كما عرفوا ممن الأرض وأجر العامل الفني وما يستحق هذا العامل من احترام، وهم يسمعون هذا ويسمعون أشياء أخرى تناقش وتدور على ألسن المجتمعين في المتجر أو في مكتب البريد أو عند الحلاق.

ويلاحظ الأطفال هذه الأشياء كجزء من ألعابهم، ويصغون إليها

ويفهمونها، فلم يقل الآباء لهم «اذهبوا إلى هناك وقفوا عند هذه المجموعة من الرجال أو تلك وأنصتوا إلى السيد براون وهو يتحدث عن ثمن القمح فقد تتعلمون شيئا يضاف إلى تربيتكم» لا، لم يقل لهم الآباء شيئا مثل ذلك مطلقا، بل كان الأطفال هم الذين يختلسون لحظات عندما ترسلهم أمهاتهم في مهمة ما، أو شأن من شئونها، ينصتون فيها إلى الناس، وهم في أثناد عودتهم من المدرسة يقفون ويلاحظون ما يدور حولهم، وفي أيام الآحاد يتجولون في المدينة يلاحظون وينصتون ويكتشفون ويلعبون ويتعلمون من ذلك أيضا.

وقد اشتغل الأطفال بأعمال، ومع ذلك فقد بدأ لهم العمل لعبا، لقد كان العمل في عربة البريد في اليوم الأول بالنسبة لهم يشبه اللعب، ولم يكسب الطفل نقودا ذلك الأسبوع حينما كان يساعد الرجل الذي مسح الشارع الرئيسي عند رصفه لأول مرة، ومع ذلك فقد كان العمل مليئا بالفكاهة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يعد درس القمح في الصيف التالي آنذاك ممتعا بعد مضى الأيام القليلة الأولى، ومع ذلك فقد كان في هذا نوع من الاشباع أيضا، وقد كان الطفل في ذلك الوقت يكسب ثمانين سنتا في اليوم، وكان بين كل هذا هازلا، لأنه اشتاق طوال هذه السنوات أن يعمل شيئا بعد أن لاحظ مجموعة من الزملاء الأشداء يقومون به سنوات طويلة، وقد ظهر أنه أصعب وأشق مما كان يعتقد ولكنه لا يستطيع له تركا «كما فعل أحد أصحابه القدامى» وذلك لأنه شعر فجأة أن هذا اختبار لنضجه ونموه.

والبنون والبنات الذين عاشوا في المزارع مروا بخبرات كثيرة أثناء هذا

العمل الممتزج باللعب أو أثناء هذا اللعب الممتزج بالعمل، وقد كان من المزاح أن يغذي الطفل في سن السابعة الفراريج، وكان من المزاح أيضا أن يحلب البقرة وكان من المزاح أن يهيأ الطفل وهو في سن السابعة عشرة مكانا في الاسطبل للخيل، وكان من المثير حقا أن يقود وحده وهو في سن الخامسة عشرة عربة إلى المدينة ليبيع اللبن ويعود بالثمن، وهذا عمل كان الأب يقوم به وحده حتى في ذلك الوقت وهذه الأعمال كلها كانت هزلا في البداية، ولكن الشات الذي يعمل بالزراعة يستمر في أداء عمله حتى بعد أن لم يعد الأمر هزلا، لأنه يعلم مدى أهميته بالنسبة لدخل الأسرة.

هذا النوع من الحياة بسيط بمعنى أن المباديء التي تسيطر عليه مفهومة بالنسبة لعقل الطفل النامي، فارتفاع أثمان منتجات المزرعة وانخفاضها في كل موسم بذلك على صحة قانون للعرض والطلب، والطبيعة خارج البيت صديقة للطفل حيث يفهمها وحين يستخدمها عدوة له حين يهملها ولا يستطيع السيطرة عليها، ويؤدى العمل والاقتصاد في النفقة إلى شراء أرض جديدة، وتصبح الديمقراطية هامة حين يقطع الفرد مساهمة خمسة أميال ليعطى صوته، وحين تذهب الأسرة كلها من أجل ذلك، وأدوات الدراسة هي الآلات البسيطة في مخترعات الإنسان الآلية، ويسهل معرفة الصواب والخطأ، كما يسهل معرفة الزارع الذي يغش في صفقة أخشاب، ويعتبر عابر الطريق الذي يسأل إنسانا قطعه من الخبز دون أن يساعده في قطع الخشب إنسانا جانحا، ولا تعتبر المسألة الجنسية مشكلة أنها عمل ممل قوامه أخذ البقرة إلى الثورة.

نستطيع أن نتذكر حياة الأسرة في تلك الأيام قبل أن تيسر السيارة

للأسرة أسباب الاتصال والتباعد وقبل أن يقدم الراديو برامج مسلية منظمة مدة كل منها خمس عشرة دقيقة، وقبل أن تتيح السينما مكانا نذهب إليه كل ليلة، وقبل أن تنشأ كثير من المطالب تستغرق وقت الوالدين واهتماماتهما، وكانت الأسرة متماسكة جدا، غير أن هناك الآن قوى كثيرة تتصل بالتعقد المتزايد في المجتمع المحلي وبتعقد الحياة في الولاية، وتعمل هذه القوى على تحطيم بناء الأسرة بل وتميل الحياة الاجتماعية إلى ذلك التحطيم، وعلى الرغم من أن إنسانا لم يقل هذا، فهذه الأسر مؤسسات تربوية تشكل الخلق وتصقل الأذواق وتنمي الميول وتوجه النشأ إلى اختيار المهن التي تناسبه وتنمي الكفاءة والقدرة على تكوين أسرة وإدارة شئونها، وقد كان بعض هذه الأسر أفضل من البعض الآخر لأن الآباء كانوا يلاحظون نمو أبنائهم ويوجهونهم.

وتستطيع أن تتذكر في طفولتك كيف كان الترويح مرتبطا بحياة الأسرة وكان لكل طفل واجباته التي تتصل بالمنزل والتي تتصل بالعناية بفنائه، وكان الجميع يلتفون حول النار في المساء حين تنتهي الأعمال حيث يشوى الذرة، وكانت تصنع أشجار الزينة «والفشار» والحلوى في عيد اليملاد، وكانت تقام الحفلات بعد الظهر ويقرأ الآباء في المساء على أفراد العائلة مجتمعين قصصا وروايات كما كانوا يقرأون الإنجيل، ولقد صحبت والدك عند ذهابه إلى المكتب، وصحبت عند ذهابه إلى البقال وصحبته أيضا إلى الحقل وإلى المتجر.

وتعلمت كيف يجتمع الرجال، وساعدت والدتك في تسليتها، فناديت لها الجيران كثيرا وكان في ذلك قدر كبير من الترويح، وكانت

الأسرة كلها تذهب يوم الأحد إلى الكنيسة وإلى مدرسة الأحد التي كانت تنظم رحلات قصيرة كل أسبوع والتي تنظم أيضا نزهات وتعد عشاء جاهزا وتعقد الحفلات.

ماذا تحتاج المدرسة، وماذا تريد أن تكون في مجتمع يكتسب الأطفال ما يحتاجون إليه عن طريق الترويح الذي يضفي على حياة الأسرة خصوبة، وعن طريق حياة المدينة الواضحة الطليقة من القيود وبواسطة خبرات هي مزيد من اللعب والعمل قوامها المشاهدة والاستماع ومساعدة الآخرين وكسب دريهمات قليلة من اليوم؟ هل تحتاج المدرسة بعد هذا إلى أن تقلق فيما يتصل بإشباع اهتمامات الأطفال ومطالب الترويح وخبرة العمل والقدرة على الابتكار؟

تنجح المدرسة نجاحا طيبا إذا لم تصنع للطفل أكثر من توجيه عقله وصرفه إلى التعلم من الكتاب وكانت هذه المدرسة ولا تستطيع أن تفعل أكثر من تعليم القراءة والكتابة ومباديء الحساب وبعض الحقائق الهامة – مثل عواصم الولايات وحاصلات أوروبا وآسيا ما قاله بيرك عن الصلح مع المستعمرات حين اكتشف كولمبس أمريكا – لا تستطيع المدرسة أن تفعل أكثر من هذا في مجتمع تعتبر أبوابه التي تؤدي إلى مدرسة الخبرة فيه مفتوحة على مصاريعها، وكثيرا ما لا يوجد ملاحظون حريصون ومرشدون لنمو النشأ في مدرسة الخبرة هذه، وقد يتعلم الطفل أحيانا أشياء خاطئة ولكن هذا هو كل ما كان يمكن تعلمه، وفي الوقت نفسه كان كل ما يحتاجه ذلك النوع من التعليم الذي كان يهتم أولا بالحقائق وبالمسائل العقلية بضع ساعات كل يوم خلال أشهر الشتاء، كانت هذه هي تربية عام

١٩٠٠، لمجتمع عام ١٩٠٠، مجتمع بسيط نسبيا واضح في تعليمه، مفهوم يتكون معظمه من مدن صغيرة وقرى وحيث كانت الأسرة المتماسكة توجه النشأ توجيها قويا [١] .

ولم يعد مجتمعنا على هذا النحو، فهذا عصر المدن الضخمة والصناعة والعمل الهائل، والتخصص وتقسيم العمل، والسياسة الدولية الشاملة، والتجارة التي تشمل العالم والاهتمامات التي شغلت الآباء عن أسرهم، ومن الملحوظ أن نصف أطفال الولايات المتحدة يعيش في مدن كبيرة، ويصعب تتبع العمليات الصناعية المعقدة حتى أن العمال أنفسهم لا يستطيعون أن يروا عمليات إنتاج سلعة من السلع من بدايتها حتى نهايتها. واللافتات والتحذيرات في كل مكان تقريبا تمنع مشاهدة الناس لما يدور في المجتمع وأضحى الفراغ مشكلة، وبالرغم من أهمية وسائل الترويح الجاهزة إلا أنها تعطل الاهتمامات الاجتماعية والابتكارية، ويتعرض الأطفال الذين يلعبون في شوارع المدن الكبيرة للخطر، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل إن هذه الأمكنة تضيع قيم النمو التي يمكن أن تنتج عن لعب الأطفال.

---

(١)يشير كل هذا إلى أن المدرسة التقليدية النظرية، كانت تؤدي وظيفتها عندما كان المجتمع بسيط: حيث كان الأطفال يتعلمون كثيراً من المهارات عن طريق مساهمتهم الفعلية في كثير من أوجه النشاط، إلا أنه عندما تعقد المجتمع وعندما ظهر فيه التخصص وتقسيم العمل لم يعد في إمكان الأطفال المشاركة في نواحي النشاط المختلفة أو مباشرتها أو ملاحظتها، وأصبحت المدرسة النظرية متخلفة في مثل هذا المجتمع الحيث لأنها لم تتطور في برامجها بحيث تتيح للتلاميذ المساهمة في أوجه النشاط المختلفة في المجتمع والمؤلفان يعتبران أن المدرسة الجيدة هي التي تتطور والتي تغير في برامجها ما يحدث في المجتمع في تغيرات لكي تساعد النشأ على النمو الشامل في هذا المجتمع ولهذا لا يعتبر المؤلفان أنفسهما من التقدميين أو التقليديين وإنما يعتبران من أنصار التطور.

ومن الصعب أن يصبح اللعب عملا وأن يعزي العمل إلى نفس الاهتمام القوى الذي يدفع إلى اللعب، ونحن ننكرعلى الصغار أن يتعلموا وأن ينموا عن طريق العمل لنحمي دخل الكبار، ونحن بذلك نعطل نمو النشأ، ونخلق مشكلة للشباب.

وحيث تعمل المدارس بنفس النظام الذي وجد أصلا في المجتمع الريفي – بضع ساعات في اليوم وخمسة أيام في الأسبوع خلال الثلاثين أسبوعا من أسابيع أشهر الشتاء– فإنها تساعد دون قصد على خلق مشكلات جناح الأحداث، وقد انتشر التصنيع حتى شمل المزرعة فقامت فيها صناعات على المحاصيل التي تغلها وتستيب هذه الصناعات للعوامل الاقتصادية التي يصعب إدراكها وفهمها ولم تعد اقتصاديات المزرعة مستقلة في حد ذاتها بمعنى أن ما يحدث فيها لا يتأثر إلا بما فيها.

وليس هذا مقالا عن عيوب المجتمع الحديث وعن مزاياه، إذ ينبغي أن يكون واضحا حتى بالنسبة للملاحظ العادي أننا كمجتمع يسير في طريق يؤدي بنا إلى مكان ما، ربما نكون في منتصف الطريق بين ما كنا عليه عام ١٩٠٠ وما سنكون عليه عام ٢٠٠٠، ويمكن أن ينظر إلى عدد كبير من عيوب المجتمع الحديث على أنها آلام تتزايد وتكبر–وسوف تجد المشكلات التي تحدث هذه الآلام حلا بمضي الزمن – هذا ما نأمله، وقد ذكرت خصائص مجتمعنا لنقارنها بما كنا عليه لكي تظهر إلى حد ما أين يكون عمل التربية الحديثة.

وإذا كانت نظم مجتمعنا تتغير دائما فهل من الحكمة أن نفترض

وجوب بقاء نظام من أهم هذه النظم دون تغير، وهو النظام الذي يقوم بعمل مستمر ليحسن المواطنين وأرباب الأسر والعمال ويطورهم وليوفر أناسا مستنيرن في حياتهم فطنين في نظرتهم إلى الحياة، وإذا كانت الظروف والأحوال التي توفرت للنمو الشخصي والنمو الاجتماعي والتي وفرت خبرات مباشرة خصبة في المجتمع الريفي وفي المدن الصغيرة التي كانت موجودة عام ١٩٠٠ – إذا كانت هذه الظروف قد انتهت ولم تعد توجد إلا في أضيق نطاق، فهل من الحكمة أن نفترض أن ما تقدمه مدرسة عام ١٩٠٠ وهو شيء محدود مازال برنامجا مناسبا لمدارس اليوم؟ وإذا كانت التسلية والترويح وتنوع الاهتمامات الابتكارية قد ارتبطت بحياة الأسرة ارتباطا وثيقا فهل يظل عمل المدرسة دون تغير ولا يكترث لما طرأ على طبيعة الحياة الأسرية من تغير كبير.

المدرسة الحديثة تستأثر بأيام طفولتك

تستجيب المدرسة المتطورة، وهي المدرسة الحديثة، لهذه التغيرات التي تحدث في الأنماط الأساسية لحياتنا، وهي تعمل على تهذيب كثير من الخبرات الهامة التي توجد في محيط الأسرة وفي المجتمع المحلى في الوقت الحاضر والتي ينمو في وسطها الأطفال، والآن ما هي الخطوات التي اتخذتها المدرسة لكي توفر هذه الخبرات؟

يخلق تلاميذ الفرقة الثالثة جوا عائليا باجتماعهم حود المدرسة ينصتون لقراءات، ويقصون القصص ويتناولون الخبرات.

ويقوم تلاميذ الفصل بالترويح عن أصدقائهم بتنظيم حفل شأي أو

بدعوتهم إلى غذاء يتناولون فيه الطعام معا في حفل يشبه في أسلوبه ما كان يوجد في الحفلات القديمة.

ويوضح برنامج شامل متنوع من الألعاب والتمرينات الرياضية، يوفر للأطفال فرص الترويح، واللعب الجمعي ويتيح لهم إنماء لقدرة القيادة عند التلاميذ على اختلاف أعمارهم، وميولهم ونضجهم الجسمي.

وتنظم المدرسة الثانوية حلقات الرقص والاجتماعات، وحفلات عيد الميلاد وحفلات تناول الطعام وتكون الأندية والمهرجانات التي تيسر للنشأ المواقف المشابهة لتلك التي وفرتها الهيئات الأخرى لآبائهم.

وتكتشف جماعة من البنات، عن طريق تصفيفهم القطن وغزله ونسجه على آلة النسيج، أن الملابس لا تخلق جاهزة ولا تظهر فجأة على أرفف المحلات التجارية.

وتمارس جماعة من الأولاد أثناء صناعتهم آلة كهربائية، بالأدوات الأساسية، الخبرات الأولى التي مر بها الإنسان في صناعته الأدوات الكهربائية.

وتقضي فتاة المدرسة الثانوية جزءا من وقتها في رعاية أطفال مدرسة الحضانة، وهي بذلك تعد إعدادا مباشرا للحياة الطريقة التي كان يمكن أن تقابلها في البيت عندما كانت الأسرة كثيرة الأفراد، ويتعلم أطفال الفرقة الأولى للعب الجمعي في سلام بإحضارهم ألعابهم إلى المدرسة ويتعلمون أيضا مشاركة بعضهم البعض الآخر في هذه الأشياء.

وينظف الأطفال حجراتهم، ويحافظون على الأرفف، وينظفون

النوافذ أيضا، ويوزعون الطعام، ويستعملون أجهزة المدرسة بنفس الأسلوب ومصنع الخشب، ومصنع الحديد وعن طريق زيارتهم أيضا لدور الطباعة، ودور الحضانة، ولمكتب البريد، ولقاعات الأوركسترا.

ويشاهد الأطفال بدقة النواحي المتطورة من حياتهم كما تصورها الأفلام.

وفي سبيل إعداد التلاميذ ليأخذوا مكانهم في حياة الكبار، فإنهم يمارسون في المدرسة أساليب النشاط التي تقوم بها المؤسسات الرئيسية في مجتمعهم المحلي، فلهم متجرهم، ولهم البنك الخاص بهم، ولهم مكتب البريد، ونظام حكومتهم ومحكمهم وصحيفتهم اليومية، ولهم إذاعتهم.

وتشجع القدرة على الابتكار عن طرق الرسم والطلاء وعن طريق الاشتراك في الفرق الموسيقية والأندية وعن طريق الأناشيد وجمعيات الشعر والتمثيليات.

ويزين البنات الحجرات، وينسقن الزهور، ويحسن الزهور، ويحسن الأثاث لأسباب تشبه تلك التي تدفعهم إلى كل هذا في منازلهن.

ويكون مجموعة من التلاميذ لجنة استقبال، للترحيب بالزائرين في المدرسة بأسلوب يتسم بالأدب والوقار كما لو كانوا في منازلهم.

وتصبح الديمقراطية السياسية قريبة من فهم التلاميذ وإدراكهم لأنها تتجدد في انتخابات المدرسة، وفي انتخابات الأندية، ولجان الطلبة.

وينسق الأطفال حدائق على أرض المدرسة، حيث يزرعون ويربون

الحيوانات والحشرات في حجرات المدرسة لكي يحصلوا على الفهم الحقيقي عن طريق الخبرة المباشرة ليدركوا فائدتها وكيفية الإشراف عليها.

وتنظم المدرسة برنامجها حول خبرات العمل في المجتمع المحلى، ويوجه كل تلميذ نحو ميدان الإنتاج، ولا يعتبر مثل هذا البرنامج بالضرورة طريقا لمهنة معينة بل إنه يهدف إلى أغراض شاملة، بحيث يدرك من يصبح وزيرا في المستقبل ماهية العمل الذي يسند إليه مثلا، ويدرك من يصبح مديرا للأعمال في المستقبل طرق الإنتاج ونوعه.

تقوم المدرسة الحديثة بمثل هذه الأشياء، وتقوم بجانب ذلك أيضا بما يندر أن يوجد في مدرسة الخبرة، فهناك توجيه من جانب مدرسين أذكياء منتجين يعرفون متى يشذب الزرع، ومتى تروى الأرض ومتى تحرث، ومتى تسمد التربية، وقد تصبح حجراتهم الدراسية كأحسن البيوت في مميزاتها التربوية ومميزاتها السيكولوجية، وتشبه المدرسة نفسها مجتمع الأيام الماضية في وضوحه، وفي شموله، وقيمته التعليمية.

هذه هي معالم المدرسة الحديثة التي تجعلها تبدو مختلفة اختلافا كبيرا عن المدارس التي ألفها معظم الكبار، وهذه هي المعالم التي أدت إلى كثير من الاهتمام في دوائر نقاد التربية، فنسمعهم يتساءلون: هل هذه المدارس تلعب وتلهو؟ هل تستخف كثيرا بالجانب النظري الأكاديمي للمدرسة؟ هل يمكن اعتبارها أكثر من بدع مستحدثة أو أكثر من قشور؟ هل تتيح للأطفال وقتا سعيدا؟

تكشف هذه الأسئلة التي كثيرا ما تثار عن نقص في تقدير الأغراض

التي من أجلها عملت المدارس الحديثة على اقتباس بعض الطرق وتطويرها، فإذا ما استمتع الأطفال بوقت طيب في المدرسة شعر البعض أن هناك شيئا ناقصا، وتبدو هذه الوجهة من النظر غريبة شاذة حيث إنه لم يظهر بعد أن هناك فائدة أو كسبا يعود على الشخص حين يقوم بعمل كريه أو مضن، وقد ظهرت هذه الفكرة بوضوح من تصورات مدرسة ١٩٠٠، وهي المدرسة التي يقال عنها إنها لم تسبب أي ضرر، فأطفالها كانوا يجدون فرصا أخرى تعوضهم عما كان بالمدرسة من نقص، ويوصف ما يجرى في المدارس الحديثة بكلمات مثل «بدع مستحدثة» أو «قشور» وتقال هذه العبارات باستخفاف كبير وسخرية كما لو كان الشيء المقصود من هذه العبارات شيئا جديدا، والواقع أنك تعلمت من والد دقيق الملاحظة حكيم، أو من جار كبير السن يمتاز بالحذق أو من نجار تلاحظه أثناء عمله، فهل تلك الأشياء التي تعلمتها تعتبر قشورا؟ هل عندما طفت بالمدينة في جولاتك وأنت صغير تلاحظ، وتسمع، وتدقق، هل اعترض إنسان على طريقة تعلمك ووصفها بأنها بدعة مستحدثة؟ وأنك تعلمت بالطريقة القديمة التي يرجع قدمها إلى قدم الإنسان نفسه، هل يوجد شيء جديد بالنسبة للمدارس التي تستخدم هذه الطريقة – نعم إنها تعتبر جديدة بصفة خاصة بالنسبة لهؤلاء الذين تنبعث أفكارهم من مدرسة ١٩٠٠ حيث كان التلاميذ يتعلمون الكثير وحيث وجد الكثير ليتعلموه خارج المدرسة بالطريقة القديمة قدم الإنسان نفسه.

ويهتم أفراد الشعب بأن يحصر الأطفال انتباههم في المدرسة في الأشياء الجدية المهمة التي يجب أن يتعلموها، ولكن هل العطف، والروح

الاجتماعية، والميول الحقيقية الفعالة والقدرة على الابتكار، وآداب السلوك، واللعب القائم على احترام المساواة، والقدرة على الإنتاج والخبرة المباشرة والمهارات الصناعية، وممارسة فنون الحياة، تعتبر أقل أهمية وأقل جدية من عملية ضرب ٢ X ٢ أو من السؤال التالي: متى اكتشف كولمبس أمريكا [١] ؟

وتستعمل كلمة «لعب» كما لو كانت شيئًا غير جدير بالاحترام، إلا أن الثقاة يتفقون اتفاقا تاما على أن اللعب يعد إحدى العوامل الروحية الفعلية المهمة التي تؤدي إلى تجديد حياة النشد، وتكمن روح اللعب عميقة فى النفس الإنسانية حتى أنه لا ينضب معينها أبداً في نفس أكثر الكبار تكيفا ولكنهم يعبرون عنها فيما يقومون من أعمال فنية وفيها يمارسون من هوايات، وفيما يبتدعون أثناء أعمالهم.

غير أن ما يشبه اللعب، ليس لعبًا على الدوام وما يقوم على الميل والاهتمام يساء فهمه أحيانًا فيطلق عليه خطأ كلمة لعب، والواقع أن الميل أو الاهتمام يعد قوة حيوية في حياة الفرد، وقوته تصبح خطيرة عظيمة إذا ما استطاعت المدرسة استخدامه، وعندما تستخدم المدرسة الحديثة المتطورة الميل، يصبح أداة ذات حدين، أن كنا نرى أن الميل وحده هو الشيء الوحيد في جعبة المدرسة الحديثة بأي حال، والميل أداة ذات

---

(١)معنى هذا أن الاهتمام بالنمو الاجتماعي والنمو الجسمي لا يقل عن الاهتمام بالنمو العقلي للتلاميذ ذلك أن التربية كعملية نمو تهدف إلى نمو الإنسان من جميع النواحي، والمنهج السليم هو الذي يوفر الخبرات المنوعة التي تحقق هذا النمو الشامل، وقد دلت الأبحاث على أن المدرسة التقدمية التي تهتم بنمو التلاميذ من النواحي الاجتماعية والجسمانية تؤكد الاهتمام بالنواحي العقلية.

حدين لأنه يستخدم بطريقتين: ففي المقام الأول نجد أن الميل يستخدم ليبين اتجاه النمو ومداه، فإذا شغف الطفل بدراسة الطيور والحشرات دون دراسة السيارات أو السفن وأقبل على دراستها بنفس الاهتمام والحماسة التي تميز نشاطه أثناء اللعب، فإن هذه الحقيقة تعتبر دليلاً طيباً رائعاً على الاتجاه الذي تنمو فيه مواهبه، وإذا ما استمر هذا الميل وصحبه تكيز أعمق وتشعب وتخصص في الدراسة، فإن هذه الحقيقة أيضا تعتبر دليلا على مقداره نموه في هذا الاتجاه.

وفي المقام الثاني، تستخدم المدرسة الحديثة بمثابة مثير، فيمكن أولا اكتشاف ميول الأطفال أثناء عملهم للأشياء التي يبدون نحوها نفس الحماسة التي تميز لعبهم وعلى ذلك فإن المدرسين يستطيعون اكتشاف ميولهم عن طريق وسائل غير مباشرة أثناء الدراسة التي يريد هؤلاء المدرسون منهم دراستها، وقد يتعذر القيام بذلك أحياناً إلا أنه إذا أمكن عمله فإن المدرسين سوف يدركون ما لديهم من قوة دافعة في عملهم مع الأطفال.

وإذا كان لابد من استخدام الميل، شأنه شأن أية قوة طبيعية توجد في متناول الشخص، فيمكن استخدامه عندما يكون في ذلك فائدة، ذلك أن الكثير من طرق المدرسة الحديثة تبدو بمثابة لعب في نظر الأشخاص غير المجربين، إلا أن هذه الطرق قد تصبح مجرد لعب وقد تفقد صفة العمل كما تفقد معناها وغرضها والدافع إليها عندما يفقد المدرس القدرة على التحكم في الأداة التي يعمل بها، ويحدث هذا لسوء الحظ في المدرسة التي تحاول أن تتحدى التربية التقليدية والتي تريد أن تبعد عن الطرق الجمعية

التقليدية دون أن تتوفر لها المصادر الكافية – ويقال لك عندما يقوم المدرس ناقصاً أو عندما لا تتوفر لديه المصادر التي يجب أن يعمل بها أو عندما يكلف بتوجيه مجموعة كبيرة.

الفصل السادس

الخلق والنظام المواطنة

يهتم كثير من الناس انتماما بالغا بنوع الجيل الناشيء الذي توجهه مدارسنا، وكثيرا ما يشتد نقد الصحف والمجلات والكتب كما يزداد نقد المتحدثين عن المدارس وعن أثرهاه في النشأ في العصر الحديث، ومع أن الكبار لا يظهرون عدم رضائهم بالجيل الناشيء على الإطلاق، إلا أن انتقاداتهم لما تقوم به مدارسنا الآن من حيث تشكيلها خلق شعبنا وما سيكون عليه في المستقبل، تستحق منا اهتماما عظيما، وكثيرا ما يقول بعض الناس إن المدارس «التقدمية» مسئولة عما وصل إليه حال شبابنا من عدم احترام للنظام وعدم تأدب في السلوك، لأنهم يعتقدون أن هذ المدارس لا تؤمن بالنظام، وأنها تتيح لتلاميذها كثيرا من الحرية والتسامح، وليس هذا حقا، بل يمكن القول إنه مع التسليم بهبوط المستوى الخلقي لشبابنا فإن عدد المدارس التقدمية، التي توجد لدينا، لا يكفي لتبرير كل هذه الانتقادات التي يبديها هؤلاء الناس الذين يحذروننا من التربية التقدمية، فقد اقتصرت حركة التربية التقدمية على عدد قليل من المدارس حتى أنها لم تشمل الآن إلا نسبة قليلة من التلاميذ.

ويمكن أن نبين على أية حال، أن طراز مدرسة ١٩٠٠ مازال باقيا بأعداد هائلة، كما يمكننا أن نبين أنه إذا كانت المسئولية تقع على عاتق

أي مدرسة «من حيث هبوط المستوى الخلقي للتلاميذ» فإن هذه المدرسة تعتبر مسئولة أكثر من غيرها، وذلك لأن الحالات التي اقتبسها نقاد المدارس التقدمية لكى يبرهنوا على صحة انتقاداتهم، مستقاة غالبا من جهات كثيرة من أنحاء القطر – تتميز غالبية المدارس فيها بتربية عام ١٩٠٠ أو بنوع من التربية لا يختلف كثيرا عنها، والواضح أن تربية عام ١٩٠٠ لم تظهر اهتماما كبيرا بالخلق، فقد كانت أهدافها الأساسية هي حشو رؤوس التلاميذ بقليل من الحقائق وبعض المهارات الأساسية وكانت تعالج مشكلات النحو والخلق والمواطنة، والكفاءة المهنية، وإنما الذكاء في مجالات التفكير والعمل، على أساس أنها أشياء غير منظمة، تنتج من التعلم الذي يقوم على حفظ الكتاب، وكانت نظرتها إلى الخلق نظرة سلبية مرضية – فإنها كانت تعاقب التلاميذ على ما يصدر منهم من أعمال سيئة.

وكانت ترى أيضا أن التلاميذ يستطيعون نقل ما تعلموه من الكتب إلى العالم الواقعي ولهذا كانت تعلمهم كتابة عبارات معينة وتكرارها من أجل تدريب الخلق، ومن العبارات المستحبة التي كان التلاميذ يكتبونها لتحقيق ذلك العبارة الآتية : «سوف أكون ولدا طيبا» وكانوا يكتبون مثل هذه العبارة مائة مرة، ولهذا فإنه إذا غضضنا النظر عن نقد المدارس الحديثة من حيث ما تقوم به لتنمية الخلق، فيجب أن نكون ناقدين لما تتقاعس المدارس المتخلفة عن عمله.

ولا يمكن أن نلقى المسئولية كلها على المدارس وحدها مما ظهر على خلق شبابنا من مظاهر غير مُرضية، فقد ذكرنا في الفصل السابق أن

الجماعة المحلية والمزرعة والكنيسة والهيئات الاجتماعية وغيرها من المؤثرات الخارجية كانت تؤثر تأثيرا قويا في تكوين خلق النشء أثناء النمو البطيء الذي يتشكل فيه الفرد تشكلا مستمرا بهذه الطرق غير المباشرة، ولكن هذا الموقف قد تغير تغيرا عظيما وكانت المدرسة المتطورة سريعة في ملاحظة هذا التغير وفي إدراك مسئوليتها حوه.

فإذا لم يقم المنزل بدوره في تنمية النشأ وتوجيهه كما كان يفعل في الماضي فما هي الهيئات التي تقع عليها المسئولية لتعويض هذا النقص وسد هذه الثغرة؟ وإذا كان الأطفال قد استطاعوا اكتساب كثير من المهارات المتصلة بأساليب الناس وأعمالهم في مجتمع ١٩٠٠ الطليق الحر الذي كان مكوناً في معظمه من مدن صغيرة وقرى، فما هي الهيئة التي ينبغي أن تشبع هذه الحاجة في الوقت الحاضر ولاسيما بعد أن اختفت تلك الظروف؟ أن الذين يديرون المدارس الحديثة يعتقدون أن المدارس يجب أن تلام على هذا التراخي، كما يرى العامة أن المدارس هي التي يجب أن تحمل مسئولية القيام بهذه الوظائف وذلك لاعتقادهم بأنها أفضل الهيئات التي أعدت لذلك، والواقع أن حالة النشد التي تؤذن بالخطرترجع وإلى فشل المدارس المتخلفة التي لا تحاول أن تتطور وأن تتكيف مع ما يحدث من تغير في المجتمع، وترجع هذه الحالة أيضا إلى غير ذلك من العوامل، ولهذا فإنه من العسير أن نلقى اللوم على المدرسة التي تحاول أن تتطور رغبة في تعويض هذا النقص الذي يظهر في تربية النشد، أي أنه من الصعب أن نلوم مثل هذه المدرسة على ما وصلت إلى حالة النأ من هبوط.

تكوين الخلق

ما الخلق؟ الخلق هو مجموعة من القيم الأساسية – الروحية والعاطفية والعقلية التي توجه الشخص في تفكيره وفي عمله، ويظهر الخلق في الشخصية وفي السلوك وفي آدابه وفي العادات، وتظهر هذه كلها فيما يصدر عن الفرد من أعمال فلا يمكننا إدراك حقيقة خلق الفرد حتى نراه في موقف عملي، والخلق يؤثر في تفكير الشخص، ولكنه لا يبدو واضحا إلا حين يخرج التفكير إلى حيز العمل، وبعبارة أخرى أن الخلق ليس شيئا يؤثر في التفكير أو يتزثر به فقط، ولهذا فيمكنك أن ترى بوضوح أن الخلق المرغوب فيه ليس شيئا يمكن تلقينه بمجرد الحديث عنه.

ومجموعة القيم الأساسية التي نسميها خلقا ترتبط ارتباطا وثيقا في جميع الحالات بالمشاعر، فكل ما يأتيه الشخص من عمل، وكل ما يسلكه من سبيل في هذا العمل، وشخصيته وسلوكه وآدابه وعاداته ليست على هذا النحو أو ذاك لأنه يفكر بهذه الطريقة أو تلك فحسب، بل لأنه يشعر أيضا بهذه الطريقة أو تلك، فاستجابة الشخص للناس تتلون وتصطبغ بالطريقة التي يشعر بها نحوهم أي أن وطنيته وآمانته والثقة فيه واحترامه للكبار عبارة عن اعتقادات تنغرس انغراسا عميقا في مشاعره، ويحتمل ألا تكون هذه الأشياء معتقدات على الاطلاق، بل ربما تكون مجرد مشاعر تجاه أشياء معينة تحدد أفعاله، وواضح إذن أنه إذا كان علينا أن نربي لتكوين الخلق فينبغي أن نربي المشاعر كما يربي العقل على السواء.

وهناك شيء آخر يتعلق بالخلق، وهو أنه ينمو عن طريق التقليد

وتظهر هذه الحقيقة عندما نتكلم عن «القدوة الصالحة» ذلك لأن النشء يقلدون من يحبون م نالناس ومن يعجبون بهم فهم سريعوا الإدراك والتمييز بين «اعمل كما أقول» و«اعمل كما أعمل» فيمكن التحدث مع الطفل عن الخلق إلا أن النتائج تكون أفضل عندما يظهر الشخص الصفات الخلقية المرغوب فيها في أعماله فضلا عن إظهارها في أقواله.

هناك جوانب ثلاثة مستترة، ولكنها حيوية، وفي نمو الخلق، وهي أن الخلق شيء إيجابي، وأنه يرتبط ارتباطا عميقا بالمشاعر، وأن توجيهه يقوم على احترام هؤلاء الذين يقومون على الإرشاد، ولم تراع مدرسة قبل عام ١٩٠٠ مراعاة مقصودة واعية كل هذه الظروف.

وقد بدأت المدارس المتطورة في معالجة مشكلة نمو الخلق في السنوات العشرين الأولى من هذا القرن، وقد توصلت أثناء عملها هذا إلى إنماء طريقة عملية تعتبر من أفضل الطرق الفنية في تاريخ التربية، وسوف نترك تهذيب هذه الطريقة والوصول بها إلى درجة الاتقان إلى المستقبل البعيد.

ومن بين الأعمال الأولى التي قامت بها هذه المدارس أنها تخلصت من الخوف كسلاح رئيسي في يد المدرس، وبذلك انقضى ما كان يوجد من توتر بين المدرس والتلاميذ، فقد تحكم المدرسون أنفسهم في انفعالاتهم، وأحسنوا معاملة التلاميذ سواء في عقابهم لهم أ ثنائهم عليهم، ولم يلجأوا إلى تعنيفهم أو تحقيرهم أو إحراجهم أمام التلاميذ الآخرين، ذلك أن نتائج الوسائل المضادة لا يمكن التنبأ بها إذ أنها سم ناقع، وقد لجأ المدرسون كلما أمكن، إلى أساليب إيجابية قوامها الحب والقبول الحسن والإعجاب المتبادل.

ولم يعد الضحك من المحرمات، وسرعان ما تبين المدرسون أن لهذه التغيرات والتعديلات في الجو المدرسي العام تأثيرا ملحوظا على اتجاهات الأطفال وعلى مشاعرهم وشخصياتهم.

وإذا كان الخلق شيء عملي فعال فمعنى هذا أن طرق انمائه لابد أن تتضمن نشاطا وخبرة وممارسة، والمدرسة التي تستخدم مثل هذه الطرق تشبه مسرح يمارس عليه الأطفال أنواعا مقبولة من السلوك، فيعد الموقف ويهيىء ليجعل السلوك المقبول ناجحا والسلوك غير المقبول فاشلا، غير أن النجاح أو الفشل إنما يتضحان للتلميذ نفسه في ضوء الأشياء التي يرغب في عملها وفي ضوء نوع الشخصية التي يرغب في أن تكون له، أي أن الحاجات والرغبات والمشاعر والعواطف ترتبط ارتباطا وثيقا بالممارسة، وتتاح للأطفال حرية يتمتعون بها ويمارسونها في ضوء ما يرسمه المدرسون لهم من حدود، وهذه الحرية التي تمنح بقدر أول الأمر والتي تزداد تدريجيا كلما نما الأطفال في ممارستها هي التي تعلم النظام الذاتي، فإن هؤلاء الذين لا يقومون بأعمالهمه إلا بتأثير ما يلقي عليهم من أوامر لا يتعلمون التفكير لأنفسهم لأنهم لا يحتاجون إلى ذلك على الاطلاق.

والمدرسة الحيثة تتيح للصغير الفرصة ليفكر لنفسه كما تتيح له أن يختار بنفسه، وسواء أكانت هذه الحرية محدودة أم واسعة فإن حرية الاختيار تعتبر ذات أثر تربوي ولاسيما إذا منحت في ظل توجيه المدرسين اليقظين ذوى الفطنة.

ويمارس الأطفال على هذا المسرح الكبير مئات من المواقف والطرق

ويسلكون أثناءأ ذلك سلوكا مهذبا أمينا ويتعاونون ويتحملون مسئوليات، ويتعلمون الثقة في أنفسهم وأن يكونوا مجدين محترمين يعتمد عليهم الآخرون.

وهم يمارسون هذا كأعداد لهم ليتركوا هذا المسرح إلى الحياة حيث يواصلون ممارسة هذه الصفات، أن مثل المسرح وإعداده مثل الحياة والممارسة المطردة هي الوسيلة الحقيقية للتدريب على شئونها، وقد يرتكب الطفل أخطاء في تنميته للخلق، كما ترتكب نحن أخطاء في التهجي عندما نتعلم الطريقة الصحيحة في كتابة اللغة ولهذا يسهل أن ندين المدرسة التي تماثل الحياة فيما تعمله لإنماء الخلق، إلا أنه عندما نرى الطفل يسلك سلوكا غير مهذب مرة واحدة كل عشرة حالات نقول مباشرة «إنهم يسمحون له بكثير من الحرية في مدرسته حتى أنه يسلك سلوكا غير مهذب يستمر به في حياته خارج المدرسة!» ألسنا من النضج بحيث ندرك أن الطفل الذي يتعلم لابد أن يكون من حقه أن يقع في الخطأ أحيانا؟ أم أنك تفضل أن نقول للطفل كل مرة ما يجب عليه أن يعمله حتى لا يمكنه أن يتعلم على الاطلاق.

لا يوجد طريق آخر لإنماء السلوك السوي المرغوب فيه أفضل من أن يسلك الفرد سلوكا حسناً إلا أن هذه الطريقة ليست جديدة وإن كانت تظهر كذلك بالنسبة للمدارس التقليدية وحدها، فقد كانت طريقة الممارسة وحرية ارتكاب الأخطاء وتعلم الطرق الصحيحة للعمل عن طريق الخبرة، من مميزات البيئة الريفية التي نشأ فيها، فيما مضى، كثير من الشباب ذوى الخلق المقبول، إلا أنه يلاحظ وجود فروق بين هذه التربية

وبين ما تقوم به التربية الحديثة في هذا الصدد، ومن ذلك : أن العملية التي تتم في المدارس ليست عرضية كما كانت في تلك التربية، فإن المدرسة تعدالمواقف وتنظمها لتحقيق أغراض خلقية معينة لدى أفراد معينين، كما أنها توفر توجيه حكيم حاذق يقوم به الكبار لتوجيه النشأ أثناء قيامهم بأنواع الاختيار المراغوب فيها، ويتم هذا التوجيه إذا احتاج إليه الصغار.

تكوين المواطن الصالح

وهناك أنماط أخرى من السلوك بطيئة في نموها وهي تماثل الخلق من حيث إنها تتطلب ممارسة وخبرة لكي تنمو إلى أقصى حد ممكن، والمواطنة أحد هذه الأنماط، وقد زعم كثير من الناس في الماضي – ومازالوا يزعمون – أنه من المستطاع أن ننمي المواطنة عن طريق القراءة والتحدث عنها، ولكن المواطنة شيء فعال تنمو الكفاءة فيها عن طريق الخبرة، ونحن نتوقع أن يكون الكبار ذوى الكفاءة في مواطنتهم قادرين على أن يعطوا أصواتهم بطريقة تتسم بالذكاء، ولهذا قد نكون واهمين عندما نتوقع أن يصبح الشخص فجأة في الحادية والعشرين ذا قدرة وكفاءة رشيدة على أن يمارس حقه الانتخابي دون أن يعد لذلك إعداداً عملياً.

إن خريجى المدارس الحديثة لا يصوتون في الحادية والعشرين من أعمارهمه لأول مرة، فقد أمضوا سنوات يتعلمون فيها التصويت بطريقة مباشرة، ويتعلمون إلى جانب ذلك الاعتبارات التي تتصل بالتصويت المستنير، فقد ارتبطت خبرتهم في انتخاب ممثليهم في الحكومة المدرسية بما قاموا به من الاجتماعات وما خاضوه من المعارك الانتخابية وما قاموا به

من الخطب والهتافات والإعلانات، وبذلك يتاح للصغار نفس هذه الظروف التي تحدث في الحياة السياسية، ويعيشون ف يالمدرسة في مواقف حية تساعدهم على المرور في خبرة مماثلة بنفس الطريقة التي يمر بها الكبار في خبرات الحياة، وبذلك يصبح الشاب الذي يتخرج في المدرسة الحديثة في الحادى والعشرين ناخبا محنكا يألف العوامل التي تغري على إصدار الأحكام المتحيزة غير السديدة والتي كثيراً ما تتصف بها المعارك الانتخابية، كما أنه يستطيع تحليل هذه المغريات.

والقدرة على التفكير الذكي نمط من أنماط لسلوك التي تنمو نموًا بطيئًا، ولا تنمو العقول القوية على غذاء جاهز مهضوم، والتدريس الذي يقوم على الكتب المدرسية إنما هو غذاء جاهز مهضوم قوامه تبسط الحقائق في عدد قليل من القواعد والقوانين وعرض للمباديء العامة على أنها حقائق دون تدعيمها بالشواهد الكثيرة القوية، وينتظر من التلاميذ أن يتقبلوا هذه المبسطات وأن يتقبلوا أيضا هذه المباديء العامة على أنها مباديء يستطيعون استخدامها في توجيه تفكيرهم، إلا أن هذه العملية في واقع الأمر تعد مضادة لعملية التفكير إذ أنها عملية تلقين وتطعيم وتنتظر من التلاميذ أن يتقبلوا هذه المبسطات وأن يتقبلوا أيضا هذه المباديء العامة على أنها مباديء يستطيعون استخدامها في توجيه تفكيرهم، إلا أن هذه العملية في واقع الأمر تعد مضادة لعملية التفكير إذ أنها عملية تلقين وتطعيم وتنتظر من التلاميذ أن يقبلوا ما يرونه مكتوبا في الكتاب باعتباره مفروضا عليهم بل وباعتباره أمر نهائي لا شك فيه، ونحن الآن أمام جيل من الناس شب على التدريس القائم على الكتاب المدرسي وترى كثيرين

منهم يلتهمون ما يجدونه مطبوعا في كتاب أو في جريدة يومية أو مجلة.

إن تنمية قوة التفكير تعتبر أعمق من مجرد الاعتماد على تدريب الكتب المدرسية، إذ يتحتم أن تتوافر للنشأ فرصة خصبة للتفكير فلا تتوافر له فقط فرصة لحفظ المباديء العامة إذا كان يريد أن يتعلم التفكير حقا، فتعلم التفكير ليس معناه تلقين التلميذ أن المربع المنشأة على وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين، ثم نتوقع منه أن نتعلم التفكير بالبرهنة على هذه العبارة استخدام نمط من التفكير يقوم على حقائق جاهزة نفرضها عليه عقل إنسان آخر.

أن تعلم التفكير لا يكون بتلقين التلميذ قوانين الوراثة كما توجد معدة جاهزة في الكتب، وإنما يظهر عندما يزرع النباتات ويلاحظ نموها ويصل إلى استنتاجات يمكن أن تراجع على ما يوجد في الكتب من قوانين، فلكى نعلم التلميذ التفكير ينبغي أن يكون لديه شاهد ودليل ومادة يفكر بها.

أن تعلم التفكير لا يكون بتدريب قوى الطفل تدريبا قويا على التفكير في مواد العلم وأدلته فقط وأن نتوقع منه بعد ذلك أن يصبح قادرا على مثل هذا التفكير في الميادين الأخرى وما فيها من حقائق وأدلة، فلكي يتعلم المرء التفكير الاجتماعي ينبغى أن يفكر في الشواهد والأدلة الاجتماعية، ولكى يفكر تفكيرا حصيفا في مسائل الأعمال ينبغى أن يتعلم الفتكير في أدلة العمل وشواهده.

هل نتوقع من خريجي مدارسنا أن يعرفوا كيف يفكرون في مشكلات

الحملات السياسية؟ إذا كنا نتوقع منهم ذلك فيجب أن نتيح لهم الفرص الحقيقية ليفكروا في ضوء مثل هذه المواقف التي يمارسون فيها المناقشة والتصويت والاشتراك في القرارات التي تؤثر على اتجاهاتهم والتي تساعدهم على أن يلاحظوا تأثير هذه القرارات بحيث يراجعونها ويصححون ما ينتج عنها من أخطاد، ويجب ألا تكون قرارات الناخبين خاطئة في أكثر الحالات، والوقت المناسب لارتكاب الأخطاء في التفكير السايسي هو أيام الدراسة حيث يتعلمون طريقة تجنب مثل هذه الأخطاء.

هل نتوقع من صغارنا أن يعرفوا كيف يعالجون مشكلاتهم الشخصية في حياتهم؟ إذا كنا نتوقع منهم ذلك ينبغي أن نتيح لهم الكثير من الفرص لكي يتعلموا القيام بهذا أثناء تفاعلهم الاجتماعي وأثناء خبراتهم وينبغي أن نتيح لهم أن يعالجوا مشكلاتهم الشخصية في ضوء توجيه مرشد مستنير، هل نتوقع من صغارنا القدرة على معالجة المسائل المالية بحنكة وحكمة؟ إذا كنا نتوقع منهم ذلك ينبغي أن توفر لهم الفرص لكي يعالجوا مسائل المال وذلك بأن ينظموا مصروفاتهم ويضعوا الخطط لنفقات نواديهم وأن يقوموا بمشروعات اقتصاية في مدارسهم.

تربية سطحية أم تربية عميقة

هذه التربية تختلف اختلافا عظيما عن تربية ١٩٠٠، ومع ذلك فإننا نفحص هذه التربية من جديد لأننا نقدر ما كان يعتبر أساسيا فيها رغبة في الابقاء عليه، وقد نتبين ذلك إذا ما نظرنا إلى المدرسة الحديثة وهي تسبر غور هذه المشكلة على مستويات هامة ثلاث: المستيو الأول هو

مستوى المهارات والمعرفة حيث تقنع المدرسة التقليدية بتدريس قليل من الحقائق وقليل من المهارات الأساسية ولكن هذا النوع من التربية لم يعد مرضيا باعتباره النوع الوحيد، فإن المدرسة الحديثة تدرس هذه المهارات والمعرفة بطريقة أفضل بل إنها لم تقتصر على ذلك بل ذهبت إلى أبعد من هذا المستوى السطحي.

ولقد تعمقت في المستوى الثاني وهو مستوى إنماء المواهب ذلك أنها تقدر الفروق العظيمة بين التلاميذ من حيث الاستعداد، والبيئة المنزلية، والمواهب، والحاجات، وتوفر آفاقا واسعة لكل ميادين من ميادين الخبرة الإنسانية، وفي كل ميدان من ميادين الفهم الإنساني أيضا، وهي بتنظيمها كل هذه الخبرات تساعد التلميذ على ملائمة نفسه على نوع الحياة التي تهيأ له استعداداته الطبيعية.

وثالث هذه المستويات وأعمقها هو مستوى الكفاءة الشخصية والاجتماعية الذي يتضمن قوة الخلق والمواطنة والتفكير.

ويظهر هذا المستوى إلى حد كبير في المدارس الجيدة وحدها كما تظهر المستويات الأخرى إلى أقصى حد ممكن، وسوف يمتد هذا المستوى امتدادا كبيرا عندما تعمل المدارس في المستقبل على تحطيم الأسوار التي تحيط بها وعندما تنتشر أنواع نشاطها في البيئة وعندما تسمح للتلاميذ في خططها التربوية، بالممارسة والنشاط الفعلى في مجال الأعمال المحلية، وفي مجال الصناعة، وفي أسواق المدينة، ونواديها، ومكتباتها، وفي منازلهم، وفي حدائق المدينة، واجتماعاتها وكنيستها هيئاتها الاجتماعية ومزارعها وغاباتها.

فإن المدرسة الحديثة لها خطط تتصل بالبيئة وتجعل منها جزءا من نشاطها ومن نشاط هيئات التدريس، وبهذا تمثل المدرسة المجتمع المحلى القديم البسيط الواضح الطليق من القيود الذي كان مكانا خصبا لصالحا لإنماء الخلق والمواطنة والكفاءة والذوق العام.

ما علاقة كل هذا بالنظام؟ أن ما يساعد قدرة الفرد على التفكير يساعده على النظام، وما يؤدي إلى نمو الخلق، يؤدي أيضا إلى نمو النظام، فالمواطن الذي يميل إلى العمل الواعي الذكي يعتبر شخصاً مدرباً على النظام، والمدارس التي تعالج مشكلات إنماء الذكاء، وإنماء الخلق والمواطنة معالجة حقيقية هي المدارس الوحيدة التي تنمي أساساً منظمين بأحسن معانى هذه الكلمة.

النظام

يعتبر النظام عنفاً وعقاباً وتحكماً استبدادياً إذا قلت، «اعمل كما آمرك». فما هذه الكلمات إلا وسائل لنوع مفروض من النظام، أما إذا قلت أن الأشخاص المتمدينين هم الأشخاص المدربين على النظام، فإن هذا قول يدل على أننا يجب أن نعيش بمقتضى القوانين، ويشير هذا بدوره أن أحداً منا لا يستطيع أن يفعل ما يريد على الدوام، وذلك لوجود قيود وحدود معينة لحرياتنا الشخصية، والموقف السليم الذي يظهر فيه نوع النظام الصحيح هو عندما يعرف ما يمكن عمله وما لا يستطيع عمله – فعندما يعرف الشاب على وجه صحيح حدود حريته وعندما يدرك وجود هذه الحدود دائما، فإنه يوفر نظامًا صالحًا، وفي ضوء هذا المعنى، قد يعتبر

كل من النظام التصوفي والنظام العسكري، نظاماً صالحاً.

أما في المواقف التي تتسم بسوء النظام، نجد أن الحدود تختلف من يوم إلى آخر، فإذا ضربت اليوم طفلا من أجل شيء استطاع الحصول عليه في الأسبوع الماضي، لا يعتبر ذلك نظاماً، وإذا ما سلك شخص ما سلوكاً معيناً اليوم سلك غيره في الغد، لا يعتبر مثل هذا الشخص شخصاً منظماً.

وقد تعتبر مدرسة ١٩٠٠ مكاناً طيباً لنوع محدود من النظام ذلك أن القيود كانت قائمة دائما في تلك المدرسة، إلا أن هذه القيود كانت ترسم بدقة حتى أنه لم تتوافر فيها إلا حرية ضئيلة– فكان التلميذ في نطاق ذلك النظام يشبه الشخص الماهر في القفز والى يتدرب في صندوق مغلق.

والوجه الآخر من أوجه النظام يتطب قدراً معيناً من الحرية في نطاق معين من الحدود، فلابد من وجود مكان للحركة حيث إن هذا هو ما يوجد في الحياة، إذ كيف يتسنى للأطفال تحريك أرجلهم في الحياة إذا لم يكن لبعضهم الخبرة لممارسة قدرأكبر وأكبر من الحرية ويجب أن تناسب الحرية قدرة الطفل على معالجتها وممارستها إذ يظهر القلق والاضطراب عندما يمنح المدرسون أو الآباء للطفل الصغير قدراً من الحرية لم يعد لمواجهتها أو ممارستها إعداد سابقاً، كما يظهر القلق والاضطراب عندما يقيد الأب ابنه الشاب بقيود وحدود كانت تناسبه فقط عندما كان طفلا

ويظهر الاضطراب أيضا عندما يمنح الطفل فجأة ودون إعداد سابق، حرية واسعة لا تناسبه إلا عندما يصبح رجلا، وعلى هذا فإنه إذا وجد خطأ أو اعوجاج في شبابنا فإنما يكون مرجعة بصفة عادية إلى أننا نفكر إلا

قليلا في الطريقة التي تساعد هؤلاء الشباب على النضج وفق ما نمنحهم من الحرية التدريجية، التي يجب ألا تصبح في أي وقت من الأوقات أكبر من قدرتهم على معالجتها.

هذا ما تفكر فيه المدرسة الحديثة وهي ترجو عمل فيه المدرسة الحديثة وهي ترجو عمل شيئا نحوه، وربما تكون هذه الناحية أكثر من غيرها في أساليب المدرسة التي يفهمها معظم الكبار.

فإنهم يخطئون في فهم الحرية لأنهم لا يدركون حدودها، وهم لا يدركون العملية ككل، وهم لا يدركون أيضا أن النظام ليس مسألة قيود فحسب كما أنها ليست مسألة حرية – حتى ولو كانت في نطاق حدود، والواقع أن النظام عبارة عن حرية الشباب في اختيار اتجاهاته عن طريق توجيه حكيم من جانب الكبار.

الفصل السابع

عوامل النهوض بالمدرسة

عرضنا في الفصول السابقة صورة لما تحاول التربية الحديثة أن تقوم به، وقارنا هذه الصورة بالصورة التي كانت عليها التربية عام ١٩٠٠، ولكن إذا قلنا إن مستوى جميع المدارس في أمريكا يصل إلى مستيو هذه المدرسة الحديثة فلن تكون هناك حاجة لمثل هذا الكتاب، إلا أنه يجب أن ننظر إلى المستقبل بعين الثقة، كما يجب أن نعتقد اعتقادًا راسخصا بأن المدارس الأمريكية العامة يمكنها – باعتبارها المدرسة التي عهدنا إليها بحمل مشعل النور– أن تنمى أفرادًا أكفاء وشعبا منتجا يستطيع مواجهة مشكلات المستقبل.

غير أن الموقف الذي نواجهه ليس على هذا النحو لسوء الحظ، فإن عدد المدارس الحديثة التي تطابق الصورة التي وصفناها يعتبر قليل جدا في أمريكا، فتوجد بعض المدارس الحديثة التي تساير التقدم بينما يعتبر الكثرة من المدارس من النوع المتخلف، أما العدد الكبير من المدارس يعتبر في تقدمه وسطا بين هذين النوعين، وبعض هذه المدارس يميل إلى الإسراع نوعا ما بينما يميل بعضها إلى الابطاء في تقدمه نحو تربية تقوم أساليبها وأغراضها على نتائج العلم التي تمخض عنها القرن العشرون، وقد أظهرنا أن الأدوات التي يجدها المدرس طوع بنانه قد تحسنت تحسنًا كبيرًا في ضوء

الفهم العلمى الجديد لعملية التعلم، كما أظهرنا أن العمل الذي يواجه المدارس في الوقت الحاضر يعتبر عملا أكثر تعقيدا من ذلك العمل البسيط الذي كان يواجه مدرسة عام ١٩٠٠ وذلك نتيجة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في كيان الأمة.

ومع ذلك فإن وجود بعض المدارس الحديثة يعتبر حقيقة مشجعة لنا كما أنه يشير إلى العمل الضخم الذي يواجهنا: فعلينا أن نزيد عدد هذه المدارس الحديثة، وعلينا أيضا أن نبحث عن الوسائل التي تحرز إمكانيات أفضل المدارس حتى تصبح أفضل مما هي عليه الآن، لأن أحسن المدارس التي تجد في الوقت الحاضر تقف في منتصف الطريق بين تربية عام ١٩٠٠ ونوع التربية الذي سوف يظهر في الأعوام المقبلة.
ويمكننا أن نواجه هذا العمل بثقة وفي الحقيقة يوجد لدينا طرق تعيننا على إنجاز هذا العمل، إذ يوجد لدى رجال التعليم أنفسهم أشياء تساعدهم على القيام بمجهود نحوه كما يتوفر للشعب نفسه طرق تمكنه من تقديم المساعدة.

وقد ظهرت مجموعة من الداراسات، في خلال الاثنتا عشرة سنة الماضية، كان غرضها العام البحث عن العوامل التي تخلق المدارس الجيدة: وجاءت النتائج الأولى مذهلة، فقد ظن الناس أن ما تحتاج إليه لإيجاد مدارس جيدة هو إقامة مبانى جديدة وتلقين المدرسين الطرق الحديثة ووضعهم تحت إشراف مفتشين يعرفون جميع الإجابات، وعندئذ يتحقق الحلم ويصبح لدينا مدارس جيدة، إلا أن هذه الدراسات قد كشفت عن وجه آخر للمشكلة.

إن إنماء المدارس الجيدة يشبه زراعة القمح، فإذا كان هنالك بعض العوامل التي تؤثر على جودة محصول القمح مثل توافر كمية كافية من النتروجين والبوتاس وغيرها من العناصر الكيماوية في التربية، ومثل توافر الماء الكافي،، وأشعة الشمس المناسبة، ووقت كاف يسمح بالنمو، فإن العوامل التي تحدد نوع المدرسة تعتبر أكثر من هذه العوامل التي تحدد نوع محصول القمح، والواقع أننا نجد مناطق كثيرة في أمريكا تحاول أن تنمى مدارس «التربية السوداء، «أي المدارس الحديثة» في مناطق ذات مناخ جاف «أي في المناطق التي لا تتوافر فيها الإمكانيات اللازمة».

قوة التربية

من أهم العوامل التي تؤثر على المدارس الصورة التي توجد في أذهان الشعب عن القوة الحقيقية للتربية، وقد قال نوح وبستر منذ مائة وخمسين عامًا «إنه يجب استخدام القوة الكاملة للتربية في الديمقراطية، ونحن لا نملك الآن إلا أن نعتقد أن آفاق وبستر كانت أبعد من صورة المدرسة التي وجدت في زمنه إذ كان يعبر عن مثل أعلى للتربية يقفز بالناس إلى المستقبل البعيد، وهو في ذلك يشبه أولئك المتنبئين الذين يظهرون في ميدان العلوم والإنسانيات، ومع ذلك فإننا نحتاج اليوم إلى أكثر من هذه الصورة التي تخيلها وبستر، فإذا كان الشعب ينظر إلى التربية على أنها فترة يتمتع بها الإنسان بالراحة بين طفولته وحصوله على وظيفة فإن المدارس سوف لا تفيد المجتمع شيئا كثيرا حيث إن الأغراض التربوية سوف تقتصر على تزويد النشء بعدد قليل من الحيل القائمة على تعليم الكتاب خلال أشهر الشتاء التي تعتبر فترة فراغ بين أشهر الحصاد في الخريف وأشهر

حرث الأرض في الربيع، وبهذا تصبح التربية بمثابة عمل ثانوى لا ينال إلا قدرا ضئيلا من المال، كما أن الناس الذين سوف يقومون بالتدريس قد يكونون من هؤلاء الذين ينتظرون الزواج، فإذا كانت هذه الصورة هي التي يتصورها الشعب لنوع المدرسة فإنها تمثل صورة المدارس المتخلفة، أما عندما تصبح النظرة إلى التربية أكثر أهمية وأبعد مغزى من تلك النظرة فإن المدارس سوف تصبح أفضل مما نتوقع أن تكون عليه.

إن المدارس تستجيب استجابة تامة للشعب، فإذا ما سأل الشعب أسئلة صادرة عن وجهة نظر محدودة قاصرة مثل «لم لا يحضر جونى كتبه إلى المنزل؟» أو «لم لا يعمل التلاميذ في الفصول بدلا من تجوالهم في أنحاء المدينة؟» فإن المدارس تميل إلى التاستجابة لمثل هذه المطالب التي تتسم بالمراوغة والقصور، ولكن هب أن الشعب يسأل: «لماذا لا توفر مدارسنا الخبرات أمام أطفالنا فتنتظم لهم الأندية والرحلات وزيارة المتاجر والمعامل وتشجعهم على أنواع النشاط الاجتماعي؟»».

والمدارس تميل إلى النهوض بنفسها والوصول إلى هذه الآفاق التقدمية إذا ما رغب الشعب فيها، ولهذا يجب ألا نقف جامدين إزاء حالة المدارس المتخلفة التي يرثى لها، إذ يمكننا أن نقوم بشيء نحوها، فإذا كانت صورة التربية القديمة التي توجد في أذهاننا تغلب على ما يوجد في المدارس في المناطق المحلية فإننا نستطيع أن نغير فيها عن طريق ما نوجهه من أسئلة وما نقوم به من أحاديث مع أفراد الشعب، كما نستطيع أن نتحكم في الموقف وأن نوجهه دون أن ننتظر ما يمكن أن تقوم به العاصمة «واشنطن» من عمل، فالمدارس لا تزال في أيدى الشعب – ولاشك أن هذه المدارس

التي تديرها المجالس المحلية تعتبر من أحسن مدارس المناطق المحلية حتى في هذا العصر الذي توجد فيه الحكومة المركزية.(١)

ويميل بعض المواطنين الذين يهتمون بتحسين التربية إلى استعمال وسائل الضغط على الإدارة المدرسية وهؤلاء قد يسعون إلى القيام ببعض الخدمات أو إلى تغيير في القانون الذي قد يؤثر على التربية أو إلى التغيير في الميزانية، وقد يتضمن هذا الاتجاه غالبا وسائل مهمة لتحسين التربية، فقد يعتبر ضغط الجماعة الوسيلة الواضحة الوحيدة في مجتمع لا يسمح فيه الإطار القانونى لشلعب أن يؤثر بسهولة على المدارس، إلا أنه كثيرا ما يقتصر اهتمام هذه الجماعات التي تستعمل وسائل الضغط، على فرض مواد خاصة أو تقديم خدمات من نوع خاص، هذا إلى أن خبرات مديري

---

(١)تعتبر التربية في الولايات المتحدة الأمريكية من اختصاص الولايات وليس من وظيفة الحكومة الفيدرالية المركزية فإن المادة العاشرة من الدستور الأمريكي تنص صراحة على مسئولية كل ولاية وحقها في تنظيم جهازها التربوي وذلك تحقيقا للديمقراطية التي تقوم على تشجيع الحكم الذاتي الذي يكفل المسئولية، والتكيف والمرونة، وبذلك تعتبر التربية من وظيفة الولاية، وتعمل الولاية على توزيع هذه السلطة على المناطق المحلية، ويشرف على التعليم في كل منطقة محلية «مجلس المدرسة» «**School of Baord**» برئاسة مراقب **Superintendent** وأعضاء هذا المجلس من أهالى المنطقة ويختارون بالتعيين أو بالانتخاب ووظيفته الإشراف على أنواع التعليم في المنطقة، وعلى تخطيط المناهج، وهو يعين المدرسين ويفصلهم، ويقرر الضرائب، ويشرف على أبنية المدارس، أما «مجلس التربية» في الولاية **State Department of Education** فيعين بعض أعضاءه وينتخب بعضهم الآخر من أهالى المناطق المحلية، ورئيس هذا المجلس إما أن ينتخب أو يعين من أعضاء المجلس ويسمى مدير التعليم **Commissioner of Education**، ووظيفة هذا المجلس الإشراف على السياسة العامة للتعليم في الولاية والتفتيش عليها، وجمع المعلومات، وتوزيع الأموال على المدارس توزيعًا يكفل رفع مستوى التعليم في جميع الولايات والمناطق المحلية، وتنسق السياسة القومية، وإعداد النشرات والإحصائيات، والاتصال بالخارج، وتنظيم المؤتمرات التربوية ونشر المعلومات التربوية.

المدارس مع مثل هذه الجماعات لم تكن مرضية مما أدى إلى انتشار ما نسميه «بالخجل من الشعب» بين هؤلاء المديرين، وعلى الرغم من هذا كله فإن الميدان الذي يمكن للشعب أن يؤثر فيه على المدارس يعتبر أوسع من هذا العمل الضيق الذي تقوم به مثل هذه الجماعات الضاغطة (١) .

ويقال أحيانا، إنه ينبغى ألا يحال الشعب التأثير على المدارس، وتذكر لذلك أسباب مختلة مثل القول: «إن المربين قد دربوا ليقوموا بوظائفهم وهم خبراء في عملهم أما الشعب فإنه لا يعرف شيئا عن التربية، ولهذا يجب ألا يحاول التدخل فيها، هل يتدخل الشعب في شئون الطلب وتطوره؟».

وقد تبدو وجهة النظر هذه قاصرة ضيقة فإن التعليم العام يعتبر من خلق الشعب على عكس المهن الأخرى، فقد قامت المدارس على أساس رغبة الشعب ولخدمة مصالح الشعب، كما كان يقوم على إدارة المدارس في أول الأمر أفراد من الشعب حتى إن المدارس تعتبر الآن ذات صبغة شعبية من حيث طرق تمويلها، فمن الوهم إذن أن ندع هؤلاء الذين ينفقون على الأموال على المدارس يجهلون الأغراض التي تخدمها هذه المدارس

---

(١)إن قيام «مجالس المدرسة» على سلطة الشعب تجعل التربية في الولات المتحدة تتأثر بالاختلافات التي يمتاز بها الشعب الأمريكى، إذ تجد في المناطق المحلية وفي الولايات جماعات دينية ووطنية واقتصادية تختلف في اتجاهاتها وأهدافها، ويظهر أثر هذا الاختلاف في عملية الانتخاب لهذه المجالس كما تظهر في سياسة بعض المناطق من حيث فرض الضرائب أو وضع المناهج أو اختيار المدرسين، فقد ترغب جماعة دينية ذات مذهب معين في تأكيد مادة وقد تختلف معها جماعة اقتصادية ذات مذهب اقتصادى معين وهكذا.

ويحاول البعض علاج هذا الموقف بتشجيع الناس على اختيار أفضل العناصر وأحسنها بصرف النظر عن هذه الاختلافات حتى لا تستعمل كل جماعة وساذل الضغط لتنفيذ رغباتها.

فإنها تؤثر في جميع أفراد الشعب وتتصل بهم من جميع النواحى – فهي تتصل بهم باعتبارهم تلاميذ أو آباء أو موظفين يعملون لخدمة التلاميذ.

وكثيرا ما يذكر سبب آخر لإبعاد الشعب عن التأثير على المدارس وهو «أن الشعب يعتبر جاهلا كبيراً بالطرق الجديدة في التربية لدرجة لا تمكنه من المشاركة في التخطيط التربوي»، إلا أننا نعرف أن كثيراً من الأساليب المدرسية الجيدة تعتبر بديهية إذا ما فهمت في ضوء المباديد الأساسية بالصورة التي حاول هذا الكتاب أن يعرضها، ولاشك أنه إذا ما فهم أفراد الشعب هذه المباديء الأساسية فإنهم يستطيعون أن يكونوا وجهة نظر سليمة نحوما يجب أن تقوم به المدارس، ولاشك أيضا أن يمكن الاعتماد إلى حد كبير على الرجال والنساء، الذين ساهموا في خلق التقدم التكنولوجى والتجارة والعلم الحديث، في خلقتربية حديثة، كما يمكن الاعتماد في تقديم الكثير من العمل لتخطيط مراحل التربية ونشاطها على الرجال والنساء الذين يعملون في المحال والمتاجر والمكاتب والذين يتعاملون مع الصغار والكبار، والذين يختبرون قدراتهم ويدربونها في أنواع الأعمال المفيدة ويلاحظون تقدمهم ويعلمونهم على استعمال الأدوات الجديدة في العمل والصناعة.

ليس من الضروري أن يفهم جميع العامة جميع التفاصيل المتصلة بالميدان للتربوى وما فيه من تقدم، فإن هذا في الواقع هو الميدان المهنى للمدرس المتخصص إلا أنهم يحتاجون إلى فهم كاف يعطيهم صورة عن قوة التربية الكاملة، وقد يظهر تأثير ميلهم واهتمامهم بعد ذلك بالمدارس عن طريق ما يتوقعون أن تقوم به الدراسة نحو النشء ونحو المجتمع، كما تظهر

في المطالب التي يعرضونها على القائمين بإدارة المدرسة وفي الأسئلة التي يوجهونها للمدرسين وفي الاقتراحات التي يقترحونها في اجتماعات غير رسمية، وبذلك يمكن أن نقول إن وجهة النظر التي تبعد الشعب عن المساهمة في التخطيط في شئون التربية تبدو غير ديمقراطية إذ أنه يكفي أن نقول إنه في المجتمعات المحلية التي تظهر فيها المساهمة الشعبية والتعاون الشعبي تتحسن المدارس وترتقى.

المدارس في المدن الكبيرة

ليس من السهل التأثير على موقف المدارس في المدن فإن بعض هذه المدارس تعتبر ضخمة جداً لدرجة لا تمكنها من القيام بعملها على نحو عال من الكفاءة، ذلك أن حجم المدرسة يعتبر عاملا من العوامل التي توثر على نوع التربية في المدرسة، حقا تستطيع المدرسة الكبيرة أن توفر لشبابها بعض أنواع التدريب المهني والتدريب الخاص وغيرها من الخدمات، وتبدو مثل هذه الخدمات بعيدة من متناول مدارس المناطق المحلية الصغيرة، إلا أنه يمكن أن تقوم هذه المدارس في المناطق المحلية الصغيرة بما تقوم به مدارس المدن الكبيرة من خدمات وذلك إذا ما تعاونت بعض المناطق المحلية مع بعضها وإذا ما اتحدت في سبيل توفير هذه الخدمات [١]

---

(١)على الرغم من أن الولاية تعتبر الوحدة القانونية التي لها الحق في إدارة المدارس. فإن الولايات في أمريكا خولت المناطق المحلية هذه السلطة حتى أصبحت كل منطقة محلية تدير مدارسها على أساس الحكم الذاتي، ويعتقد الناس أن ذلك هو الطريق الذي يحمي المدارس في المناطق من السياسات المتقلبة التي تظهر في نطاق الإدارة الحكومية في الولايات أو في الدولة، وقد أصبح في الثماني والأربعين ولاية الأمريكية ٦٣٠٠٠ منطقة محلية مدرسية، وتتباين هذه المناطق في حجم مدارسها وفي عدد تلاميذها كما تختلف في مدى ما يتوفر في كل منها من إمكانيات وأموال، وقد ظهر أن بعض المناطق الفقيرة، القليلة السكان، لا تستطيع أن توفر

وتتعثر التربية في المدينة الكبيرة لأنها تقوم على أساس مركزي بخلاف ما يوجد في الأماكن الأخرى في أمريكا وهي تشبه في هذا الموقف حالتك بالنسبة لشخص آخر يعيش في عاصمة الولاية حيث يدير مدارس القرية اليت تعيش فيها عندئذ لا يسمع صوتك وينعدم إشرافك عليها ولا تجد من يجيب على أسئلتك إذ يتجنب المدير الإجابة على مطالبك بقوله : «أنا آسف فإن هذا الطلب خارج عن نطاق سلطتي ولابد لك أن تذهب للمركز الرئيسي» على حين أنك لاتستطيع أن تتصل بذلك الرجل الذي يوجد في المركز الرئيسي والذي يصدر القرارات مما يؤدى بك في النهاية إلى التسليم بذلك الوضع.

وبعبارة أخرى يمكن القول إنه لا يوجد في المدينة الكبيرة التبادل والتعاون بين المدرسة والشعب، هذا التبادل وبعبارة التعاون اللذان يحدثان بطريقة طبيعية في المناطق الصغيرة حيث تعكس المدارس ما يراه الناس من آراء في التربية.

وإذا كان النظام المركزي في إدارة المدارس يسهل على القائمين على التعليم، القيام بأعمالهم دون أن يشعروا بقلق نحو ما يراه الشعب من

مدارس جيدة، كما ظهر أن المناطق المحلية في الريف يغلب عليها المدارس ذات المدرس الواحد بينما تضم مدارس المدن الآلاف من المدرسين والملايين من التلاميذ، ورغبة في النهوض بالمدارس ولاسيما في الريف اتجهت الجهود نحو ادماج مدارس بعض المناطق في مدارس مناطق مجاورة وتوحيد الإدارة في مجالس تقوم بدور الوسيط بين المناطق المختلفة الموحدة إداريا، ويقوم هذا الاتجاه على الرغبة في خلق بوحدات إدارية كبيرة تستطيع توفير برامج تربوية جيدة بأموال معقولة وبذلك يمكن مساعدة المناطق الفقيرة والنهوض بالمدارس الرديئة، على أن هذا الاتجاه يحرص على عدم وجود وحدات كبيرة جدا تؤدى إلى أن يفقد الناس الاهتمام بالمدارس أو إلى ابتعادهم عنها.

معتقدات وآراء فإن هذا النظام نفسه يجعل من السهل عليهم أن يركنوا إلى الدعة بينما يوجد مواطنون يقظون يطالبون بمدارس أفضل.

وقد أمكن علاج هذا الموقف كما أمكن النهوض ببعض المدارس في بعض المدن بفضل نظار بعض المدارس الذين حرصوا على اكتساب ثقة الشعب والذين حرصوا على أن يثق بهم الشعب، ولاشك أن مثل هذه الجماعات المحلية تستطيع أن تحقق نتائج كثيرة بعيدة المدى في المدن الكبيرة إذا ما تعاونت مع الناظر وإذا ما اجتمعت معه اجتماعات غير رسمية، وتظهر هذه النتائج وتتحقق بصفة خاصة إذا ما كانت هذه الجماعات من الناس تعبر عن مصالح المواطنين في البيئة المباشرة التي توجد فيها المدارس، وقد وجدت مثل هذه الجماعات أن لديها عناصر كثيرة من القوة تمكنها من القيام بنشاط في مطقها المحلية تساعد على النهوض بمدارسها مع الاحتفاظ باستقلالها عن الأساليب التي توجد في المركز الرئيسي.

ومن ناحية أخرى تعتبر كثير من مدارس المناطق صغيرة جدا، وتضم هذه المدارس حوالي عشرين في المائة من الأطفال، كما أن هذه الأحياء لا يوجد فيها إلا عدد قليل من التلاميذ من المدرسين، حتى أنها لا تستطيع أن توفر سلسلة متكاملة من الخبرات التعليمية، كما يوجد فيها عدد قليل من المواطنين لا يمكنهم توفير التبادل الفكري الذي يعتبر ضروريا لإنماء سياسة تعليمية سلمية إلا أنه يمكن التغلب على هذه العقبة وإصلاح الموقف عن طريق ادماج المناطق وضم بعضها إلى البعض الآخر حتى يتحقق التنسيق من الناحية الإدارية.

العوامل التي تساعد على نمو المدارس الجيدة

إذا فهم الشعب المبادئ التي توجد في ميدان التربية فإنه يمكن للعوامل التي تساعد على إيجاد مدارس جيدة أن تؤدى إلى ثمرة طيبة، ويتطلب معالجة هذه العوامل عملا من جانب الشعب كله وذلك لأنه ليس في إمكان جماعة ما أن تحدث بمفردها تغيرات في المدارس سواء كانت هذه الجماعة من المدرسين أو غيرهم.

والواقع أن المدارس تميل إلى أن تكون على مستوى أفضل في المجتمعات المحلية التي يرتفع فيها المستوى التربوى للشعب، كما تظهر هذه المدارس في المجتمعات التي توجه فيها الوظائف نحو المهن مثل المهن الفنية والمهن التجارية التي تتطلب مهارات عالية، والمهن التي لا يدخلها إلا المهرة من العمال، كما تميل المدارس إلى أن تكون على مستوى أحسن في المجتمعات التي يمتلك أفرادها درجة معقولة من الثروة وحيث يمتلك الفرد قدرا معقولا من الملكية.

وقد يبدو من النظرة الأولى أن الإنسان لا يستطيع أن يعمل الشيء الكثير إزاء هذه الظروف إلا أننا نعلم أن المجتمعات المحلية تتغير تغيرا سريعا مستمرا، فإننا نلاحظ في هذه المجتمعات أن الناس يتحركون في داخلها كما يتحركون في خارجها لسبب أو آخر، كما نلاحظ قيام منازل جديدة وظهور صناعات جديدة، ونلاحظ أيضا أن المساكن القائمة تتأثر بالوسائل الحديثة التي تمخض عنها تقدم الصناعة وتقدم العمل حتى أننا نرى أن بعض المساكن لم يعد مرغوبا لقدمه ورداءته.

والمثال الآتى يصور نوعا من التغيير الذي يمكن أن يحدث في المجتمع المحلى: عقب الازدهار الذي حدث خلال الحرب العالمية الأولى ترك عدد من الفلاحين مزارعهم ونزحوا إلى المدينة مما أدى إلى ارتفاع الأسعار في المدينة وإلى هبوط الثروة الزراعية في الريف، وأهمل الفلاحون مزارعهم نتيجة محاولتهم توفير ما لديهم من أموال حتى أنهم لم يهتموا بإصلاح مساكنهم وإصلاح أسوارها كما لم يهتموا بالوسائل التي تساعد على خصوبة أراضيهم.

ووجد الفلاحون والمستأجرون أيضا أنه من الصعب عليهم كسب قوتهم فترك معظمهم العمل، وأدى ذلك كله إلى ظهور جماعة من الشبان وكبار السن أيضا، الذين فقدوا كلا من المهارة والأمل في المدينة راغبين فيما يقدم لهم من إعانات.

وقد قررت الغرفة التجارية أخيرا أن تعمل شيئا نحو هذا الموقف، فعملت على إنشاء صناعة وعلى توفير مكان غير مقيد بضريبة لإنشاء هذه الصناعة، وظهرت في المدينة صناعة من هذه الصناعات التي تنجح في مثل هذه الظروف وشجع على ذلك توافر عدد ضخم من العمال غير المهرة، إلا أنه ظهرت الحاجة إلى عدد أكثر من العمال غير المهرة لأن كثيرا من هؤلاء الذين كانوا يحصلون على إعانات لم يعتبروا أنفسهم غير مهرة فكان لابد من استيراد عدد أكبر من هؤلاء العمال من جهات أخرى، فحضر أولئك وصحبتهم عائلاتهم الضخمة وسكنوا منازل رخيصة بل واستعملوا مساكن رديئة كانت تحتاج إلى تحسين، وقد أدت هذه الظروف كلها إلى فوائد جمة لأصحاب الأملاك كما أدت إلى ارتفاع

الأسعار في المحلات.

ولكن ما الذي حدث في المستوى التربوي لهذه الجماعة وما الذي حدث في المستوى المهني أيضا؟ لقد هبطا. وما الذي حدث للثروة الفردية وفي قيمة الملكية؟ لقد انخفضت. وما الذي حدث للمدارس؟ لقد ساءت أحوال المدارس لارتباط نوعها بما وجد من انحطاط في المستوى التربوى وفي المستوى المهنى وفي نصيب الفرد من الثروة.

دعنا نقارن هذه الحالة بما كان يجب أن تكون عليه إذا ما عالجنا الموقف بطريقة أخرى وبحل آخر. كان يجب على الغرفة التجارية أن تفكر في صناعة تشتمل على عمليات أكثر تعقيدا من هذه العمليات التي تتطلب عمالا غير مهرة، ومعنى هذا أنه كان عليها أن تفكر في عمليات صناعية تزيد في نشاط المدينة وتجعلها مكانا يصلح للمعيشة الراقية، وتضيف إلى مستواها الاقتصادى العام، وعندئذ كان يمكن للآباء في مثل هذه المدينة أن ستغلوا ما لديهم من عمال مهرة، وكان في إمكانهم تشجيع المدرسة على تدريب هؤلاء العمال المهرة.

ويلاحظ أيضا أنه إذا ما ازدهرت هذه الصناعة فإنها ستحتاج إلى أيدى عاملة ماهرة بدرجة أكبر مما تستطيع المنطقة المحلية أن توفره، ولاشك أن نتيجة كل هذا سوف تكون ارتفاع في المستوى التربوى وارتفاع في المستوى المهنى وزيادة في ثروة الفرد أيضا، وكان من الممكن أن يظهر هذا النهوض في هذه المستويات فيما يظهر من مساكن جيدة وفيما تدره هذه الصناعة الجيدة من ثروة وفي زيادة ثروة الفرد نتيجة ارتفاع أجور العمال، وقد نتساءل بعد ذلك، ما الذي يحدث بالنسبة للمدارس نتيجة كل هذا؟

سوف يتحسن نوع المدارس لارتباطه بكل هذه العوامل.

ومن ذلك نتبين أنه في إمكان قوة الشعب، عندما يعمل ككل أن تؤثر على نوع التغيير الذي يظهر في المجتمع المحلى، فإن ما رغب الشعب في تنمية مجتمع سليم بدلا من رغبته في الزيادة العدوية في السكان والصناعات، وإذا ما رغب في أنواع من الصناعات الجيدة وأنواع من المساكن الجيدة بدلا من إقامة أنواع كثيرة من الصناعات وأنواع كثيرة من العمل، فإن طبيعة المجتمع قد تتحسن على ممر السنين، وسوف يصحب ذلك أيضا تحسن المدارس.

المدارس والضرائب

بما أن المدارس تقوم على أساس الإدارة المحلية إلى حد كبير رغبة في المحافظة على إشراف الشعب عليها وقربه منها فإن تمويل المدارس يرتبط ارتباطا كبيرا بالمعونة المالية التي تتوافر لدى المجتمعات المحلية –أي أنها ترتبط بضريبة الملكية، غير أن ضريبة الدخل «الضريبة على الملكية» لا تعتبر مرنة فإنه إيرادها يعتبر ثابتا من عام إلى آخر، حتى أن أقصى ما تدره هذه الضريبة يعتبر محدودا إذا أمكن المحافظة على المستوى الاجتماعى والاقتصادى في المجتمع المحلى، إلا أن المدارس في هذا العصر المتغير، وفي هذا العصر الذي تظهر فيه وسائل متغيرة يجب ألا تتقيد بموارد الدخل المحدودة التي لم تعد تناسب إلا نوع من التربية من طراز تربية عام ١٩٠٠، ولبيان ذلك يمكن القول إنه لا توجد صناعة متطورة في مجتمعنا تلجأ إلى تقييد اتساعها وتحسين عملياتها واستغلال الموارد الجديدة عن طريق تمسكها بنظام مسك الدفاتر ونظام الميزانية الذي لم يعد يناسب التجارة الحديثة.

وقد حاولت المدارس التخلص من هذه القيود عن طريق استغلال موارد التمويل الأخرى، وقد حدث ذلك في بعض الولايات الأمريكية التي نظمت خطة تساعد على تقديم مساعدات متساوية إلى مدارس المناطق المحلية، ويمكن أن نبين ما تقوم به الولايات بالنسبة لتنظيم معونتها على النحو الآتى: يتوافر للولاية مصادر من الدخل غير هذه المصادر التي تأتى من ضرائب الملكية وحدها.

ومن هذ هالمصادر ضريبة الدخل، فتقوم الولاية بجمع ضرائب الدخل من المناطق المحلية ثم تقوم بتوزيع ما تجمع من هذا الدخل على هذه المناطق المحلية على شكل معونة تمنحها الولاية لمدارس هذه المناطق، وقد أدى ذلك إلى تخفيف الضرائب التي تفرض على الملكية في المناطق المحلية، كما أدى ذلك أيضا إلى إنفاق المال الزائد من هذه الضرائب من أجل تحسين المدارس في هذه المناطق المحلية نفسها.

وعلى الرغم من أن ضرائب الملكية المرتفعة تؤدى إلى خير المدارس وتحقق صالحها إلا أن الخبرة قد دلت على أن الناس يترددون في إحداث تغيرات في المدارس عندما ترتفع هذه الضرائب وذلك خوفا مما تتطلبه هذه التغيرات من أموال، ويظهر هذا الخوف حتى عندما لا تتطلب التغيرات المنتظرة إنفاق دولار إضافي آخر.

ويظهر الخوف من التغيير في صفوف الشعب في المجتمع المحلى نتيجة ارتفاع التقدير الأسمى للضريبة بصفة خاصة فقد تكون تقديرات أثمان الملكية منخفضة مما يؤدى إلى ارتفاع الضريبة نسبيا غير أن ما ينظر إليه دافعوا الضرائب هو التقدير الفعلى أو السعر الفعلى ذاته، فإذا كان هذا التقدير مرتفعا فإنه يثير الخوف من التغيير، ولهذا فإن المحافظة على صالح المدارس يدعو إلى أن يقوم تقدير أسعار الممتلكات على أساس قيمتها الحقيقية فإن ذلك يدعو إلى انخفاض التقدير الفعلى انخفاضا نسبيا مما قد يوفر حصيلة كافية.

ومن المهم بصفة خاصة ولاسيما عندما ننظر إلى حالة الضرائب في

المجتمع المحلى، أن نتأكد أن هذه الضرائب لا تستغل في اتجاهات غير مثمرة بالنسبة للقيم الاقتصادية والاجتماعية التي نريد تحقيقها نتيجة إيجاد مدارس جيدة، ففي بعض المجتمعات المحلية نجد أن ضريبة الملكية مثقلة بفوائد على الديون نتيجة القيام بتحسينات وأعمال لا يستطيع المجتمع المحلى القيام بها ولهذا فمن الأمور المهمة أن ندرك الأهداف التي نرغب في إنفاق الأموال من أجلها بحيث نرى مثلا: أيهما أكثر أهمية، اقتناء عدد أكبر من الحيوانات في حديقة الحيوانات أم شراء أحدث آلات الحريق أم توفير مدارس جيدة.

وإذا وجد في المجتمع المحلى أحدث المدارس، أو مدارس تسرع في اقتفاء هذه المدارس الحديثة أو مدارس تبطيء في اللحاق بها أو مدارس من النوع المتخلف، فإنه من الممكن النهوض بها جميعًا عن طريق العناية الدقيقة بالعوامل التي تساعد على إيجاد مدارس جيدة، ومعنى هذا الملاحظة الدقيقة لأنماط المجتمع وطرق نموه من حيث الاهتمام بأنواع الصناعات التي تظهر، ونوع المساكن الجيدة التي يمكن السماح بها، ومن حيث نصيب الفرد من الثروة ومن حيث العدالة في فرض الضرائب.

ويمكن أن يبدى جميع الناس اهتماما بكل هذه الأمور، فإذا وجد الناس في مجتمعهم المحلى، فرصة لتفهم معنى التربية القوية وما يمكنها أن تقوم به في المجتمع من خدمات، يجب على رجال العليم أن يدركوا أن اهتمام هؤلاء الناس وبصيرتهم تتجه نحو مشكلة تحسين المدارس، ويعتبر الوقت الذي تنظم فيه الميزانية بصفة خاصة الوقت الذي يمكن أن يوضع فيه تفكير الجماعة بالنسبة للتربية موضع الاختبار، ذلك أن وقت تنظيم

الميزانية وتخطيط السياسة المتصلة بها يشبه الوقت الذي نذبح فيه الذبائح من حيث سماعتنا للأصوات المرتفعة، ومع ذلك ينبغى أن تكون هذه الفترة فرصة يتعاون فيها أكثر المواطنين قوة واهتماما بالتربية من أجل رسم الخطط التي يمكن أن توفر مدارس جيدة في ضوء ما يتوافر لديهم من أموال وإمكانيات، إن ميزانية المدرسة تعتبر أهم أداة في يد الجماعة بالنسبة للسياسة التعليمية، فهي الأداة التي تساعد على وضوح الخطط التربوية، والكشف عن رغبات الجماعة وطرق تنفيذهاعلى نطاق واسع، ولهذا يجدر بالشعب أن ينظر إلى الميزانية على أنها الوسيلة التي يوفر بها الخدمات اللازمة للمدارس وذلك بدلا من أن ينظر إليها نظرة يشوبها الخوف والرعب باعتباره المسئول عن دفع الضرائب. ويستطيع مديرو المدارس أن يظهروا الحكمة وحسن التبصر في مثل هذا الموقف إذا ما ساعدوا أفراد الشعب على الاشتراك في تخطيط السياسة التربوية، ولهذا فإن الوقت الذي ترسم فيه سياسة الميزانية يعتبر الوقت الذي يجب أن يتقدم فيه مدير التعليم إلى الجماعة، وليس الوقت الذي يتراجع فيه.

المدرس الصالح

وهناك مجموعة أخرى من العوامل تؤثر تأثيراً قوياً على المدارس، وهذه العوامل تتصل بنوع هيئة التدريس، ما نوع المدرس الذي يجب أن يكون في المدرسة الحديثة؟ ما نوع الشخصية التي يجب أن تكون للمدرس الدقيق والموجه لنمو الطفل البطيء؟

يمتاز مدرس المدرسة الحديثة أولا وقبل كل شيء، بشخصيته الخصبة

وبإعداد الطيب وبإلمامه الواسع بالمعلوم والإنسانيات والأحداث الجارية، كما يمتاز بإعداده المهني العالي وبإلمامه بسيكولوجية التعليم، وبدرايته بتطبيق مباديء علم النفس، وبوعيه الشامل بالواجبات الاجتماعية الملقاة على عاتق التربية الحديثة، ويمتاز هذا المدرس أيضا بقدرته في الميادين الابتكارية، فهو يجد متعة في حياته إذ يعيش محترما في مجتمعه ويأخذ دورًا فعالًا في الأندية والجمعيات والمنظمات، فهو لا يعتبر طالب معرفة فحسب بل أنه يعتبر منتجًا أيضا إذ يعمل كمستشار للصناعة ويعمل أحيانا ككاتب، وأحيانا أخرى يعمل عملا فنيًا مهنيًا، ويظهر في بعض الأحيان كمحاضر وكمتحدث في الاجتماعات العامة وهو ينظر باستمرار إلى النهوض بطرق تدريسه وإلى تحسينها، هذا هو نوع الشخص الذي نرغب فيه لتوجيه أطفالنا الناشئين المتفتحين، ونجد مثل هذا الشخص في المدرسة الحديثة المتطورة [1] .

ويبلغ عدد الرجال نصف من يعمل في التدريس في المدرسة الثانوية، وإذا كان الغرض من المدرسة هو مجرد تدريس القراءة والكتابة والحسابة، وبعض الحقائق القليلة فإنه في إمكان أي شخص القيام بهذا العمل، أما إذا اشتملت أهداف المدرسة على إنماء الخلق فإن وجود رجال من طراز ممتاز

([1])لعل هذا يشير إلى ضرورة الاهتمام بمناهج معاهد إعداد المعلمين فإننا نحتاج في مصر إلى مدرس يستطيع أن ينهض بالعملية التربوية وبجميع عناصرها، ولا يتوفر ذلك إلا إذا كانت مناهج معاهد التربية ومعاهد المعلمين منوعة، تشجع الطالب على ممارسةأنواع النشاط الاجتماعى والرياض والعلمى وتعمل على تشجيع الهوايات وإنماء القيادات والزعامة عند الطلبة وتساعد أيضا على الاطلاع وزيادة الاهتمام بالأحداث الجارية والمسائل القومية، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تحررت المناهج من قيود التخصص الجامد.

يصبح ضروريا ومفيدا لنمو البنين والبنات أيضًا، وبعبارة أخرى لا تعتبر المدرسة مؤسسة تقتصر هيئة التدريس فيها على النساء فقط.

إن عددًا كبيرًا من النساء متزوج، ولكنهن لا يدخرن مرتباتهن لإنفاقها عند الزواج، ذلك أنهن انخرطن في مهنة التدريس باعتبارها مهنة، وليس من سياسة «مجلس التربية» اعتبارالتدريس «وظيفة إضافية» ثانوية، لا يفيد المرتب الذي تتقاضاه منها المرأة المتزوجة لأن في استطاعة زوجها أن يطعمها.

وليس في استطاعة كل من تلقى عددًا من المواد التربوية، أن يطبق منهجًا حديثًا في فصل دراسى، وكثيرًا ما تتردد الشكوى من أي صعوبة تطبيق التربية الحديثة يرجع إلى عدم توافر العدد الكافي من المدرسين الذين يمكنهم فهمها وتطبيقها، إلا أن ذلك يعد اعتذارًا أكثر منه سببًا، إذ عندما أرادت القوات المسلحة تنظيم برنامج تربوى، استعانت بأحسن المواهب التي وجدت في أمريكا، واستطاعت أن تقوم بذلك لأن كثيرًا من الناس اعتقدوا آنذاك أن التربية من أجل الحرب أمر مهم.

والآن: ما النتائج المتوقعة إذا ما اعتقد عدد كبير من الناس أن التربية من أجل السلم أمر مهم حقيقي؟ إن نوع المدرسين المطلوبين متوافر في جهات كثيرة ولكنهم لا يعلمون في التدريس بل يعملون في التجارة، وفي الإدارة الصناعية، وفي فن الإعلان، وفي الطب، وفي القانون، وفي عشرات من الميادين الأخرى التي تدر عليهم ما لا يمكنهم من العيش على مستوى معيشى أعلى من المستوى الذي تيسره لهم مهنة التدريس.

وقد برهنت الدراسات على صدق هذه الحقيقة إذا بينت أن المستوى المالي يعد أقوى العوامل تأثيراً على نوع المدارس، فقد درس ثلثمائة عامل من العوامل التي تؤثر على المدارس ووجد أن مقدار المال الذي تنفقه مدارس المنطقة على المدرسين والأجهزة والكتب، يعد العامل الوحيد المرغوب من بين كل هذه العوامل، والواقع أنه على الرغم من وجود مجموعة أخرى من الظروف الطيبة – التي قد تقوم مقام هذا العامل الوحيد إذا لم يتيسر وجوده – التي تساعد على إيجاد مدارس جيدة، فإن المدارس الحديثة كثيراً ما تظهر في المناطق المحلية التي تنفق على مدارسها بنسبة ١٨٠ دولارًا لكل تلميذ في العام «١»، ومع ذلك فإن مبلغ ١٨٠ دولارًا يعد الحد الأدنى لنصيب كل تلميذ ومن الأسلم أن يرتفع هذا الحد الأدنى إلى ٢٥٠ دولاراً.

أما مدرسة ١٩٠٠ فكانت مدرسة رخيصة، يمكن لأي فرد نال نصيبًا ضئيلاً من التدريب أن يشرف عليها ويديرها، كما أن العدد البسيط من المواد الدراسية التي كان يقوم تدريسها على عدد قليل من الكتب، لم يكن يتطلب كثيراً من الأجهزة والمعدات أو المصادر الحديثة للمعلومات، والمدارس التي تسير على نمط مدارس ١٩٠٠، تنفق على كل تلميذ حوالي ٧٥ دولاراً في السنة.

المدارس الحديثة ليست رخيصة

لابد من الاختبار بين نوعين من المدارس، فسواء أرغب الأمريكيون في مدارس ناقصة، رخيصة مضطربة، أم رغبوا في الإكثار من مدارس

تتكلف أموالا كثيرة نسبيا – وتصل إلى مستوى المدارس المتطورة، التي ابتدعت أدوات جديدة من أجل تربية الشباب، فعليهم أن يقوموا بنوع من الاختيار، إن مدير الأعمال أو رجل الصناعة يدرك أن التغيير يتكلف مالا، كما أن أي مؤسسة تميل إلى الأخذ بالاتجاه التكنولوجى الحديث في إنتاجها لا تتردد في استغلال أموال كثيرة من أجل إصلاح آلاتها، وتدريب عمالها، وإعادة تخطيط طرق إنتاجها، لأنها تعيش في عالم تقوم فيه الحياة على التنافس، وبالمثل فإن التربية التي تسير على سياسة التقتير، لا تستطيع أن تعد النشء لنظام اقتصادي كامل فعال، ولهذا فإن الناس يجب أن يختاروا بين أمرين، إما تمويل قليل ومدارس رخيصة تسير على تدريب ناقص غير سليم، وإما تمويل وافر كاف من أجل قيام تربية حديثة، وهذه هي المشكلة التي يجب أن نواجهها لأنها تقرر نوع الحياة التي سوف يحياها شبابنا، ويلاحظ أن الجيش لم يتردد في إنفاق مقادير خيالية من الأموال عندما احتاج إلى طيارين مدربين تدريبا تاما لكى يخوضوا غمار الحرب.

فإذا قررنا أن ما نريده للسلم هو مواطنين أذكياء يمتازون بالكفاءة الاقتصادية والخلق القوى، والقدرة على التكيف الشخصى، فإن الأموال التي نحتاج إليها لن تصل إلى ما وصلت إليه تكاليف التدريب من أجل الحرب.

إن الظروف السيئة التي توجد فيها المدارس المتخلفة، حيثما وجدت لا ترجع إلى خطأ الشعب فقط، فإن رجال التعليم أنفسهم، قد أبوا– بسبب بعض العوامل الخاصة – أن يربطوا نوع ما يقومون به من خدمة بمقدار المال الذي يحصلون عليه من وظيفتهم، وقد ترجع هذه الفكرة إلى

نظرة العصور الوسطى حيث كان الناس ينظرون إلى التدريس على أنه خدمة اجتماعية لا تقدر قيمتها بمال، حقا وجد، فيما مضى كثير من الفوائد السيكولوجية التي كان يشعر بها الفرد الذي يعمل في التدريس مثل: الشعور بالأمن، والاحترام، ومعاشرة الناس.. غير أن الظروف قد تغيرت الآن، فلم يعد على التدريس من الفوائد المالية ما عاد على ميادين النشاط الأخرى.

ومنذ عهد قريب، حدث في إحدى الولايات – التي تعد أضعف وأقل الولايات الثماني والأربعين في تمويل مدارسها والتي تتخلق فيها المدارس عن مدارس أمريكا جميعا– أن قام موظف يحدث الشعب بقوله «أنه من الأمور التي تسيء إلى مدرسينا الأفوياء ولا تتمشى مع خلقهم، أن يقال أنهم يقومون بعمل هزيل لأنهم يتقاضون مالا قليلا، وأنهم سوف يقومون بعمعل أفضل رغبة في الحصول على قدر أكبر من المال، وكان المتكلم راغبا في مال أكثر للمدرسين، إلا أن رغبته كانت من أجل العدالة والمساواة إذ قال: «دعنا نعطيهم مالا أكثر لأهم يستحقونه لما بذلوه من جهود منذ مدة طويلة».

يعد هذا الاستجداء غير سليم على الإطلاق، فإن المباديء التي تقوم عليها مشكلة المرتبات ليست ببساطة عبارة عن المساواة والعدالة بالنسبة للمدرسين.

فإن هذه المباديء تشمل، أولا وقبل كل شيء، كفاءة المدارس وقدرتها على التطور والتكيف اللذان لا يمكن تحقيقهما بدون مدرسين

يتقاضون مرتبات كافية، فنحن ننفق على المدرسين أموالا لأننا نرغب في مدارس أحدث وأكفأ، وإذا ما أنفق على المدارس بسخاء أكثر فلن تظهر المساومة حولالتمسك بمدرسين غير أكفاء، وغير منتجين، إذ يمكن عندئذ عزل هؤلاء وإحالتهم إلى المعاش رغبة في تحقيق الخير لأطفالنا، ويظهر من ذلك أن المدرس الذي كان يتقاضى في العام الماضى مبلغ ٢٥٠٠ دولار سوف يختلف في هذا العام إذا ما تقاضى ٣٠٠٠ دولار فإن مبلغ الخمسمائة دولار الذي يفيض لديه بعد إشباع قوته سوف يجعل منه شخصاً ثرياً، وسيسلك طرقاً جديدة لم يكن يستطع أن يسلكها من قبل، سيشترك في مجلات لم يكن يستطع شراءها من قبل، وسوف يقوم برحلة كان قد عزم على تنفيذها منذ سنين ماضية، وسيشترى الكتب التي كان يرغب في الحصول عليها دائماً.

وقد ينفق هذا المدرس مثل هذا المبلغ في نواحى أخرى مثل دفع الرسوم التي كانت تثقله أو سداد دين معين، وسوف ينعكس كل هذا في عمله فإن المدرس الذي يعيش في قلق لا يكون مستريحًا في عمله مع الأطفال الصغار.

وتقرير هذا الاتجاه يوجد، لحسن الحظ، بين أيدى الشعب، فإن الإشراف على المدارس لازال قريبا من الشعب، فليس من الضروري أن يترك تقرير هذا الاتجاه في أيدى السلطة المركزية، فالشعب يستطيع أن يعمل إذا أراد العمل، والشعب الأمريكى مشهور بقدرته على الحصول على ما يريد.

الفصل الثامن

نظرة إلى المستقبل

لم يكن الغرض من هذا الكتاب دعوة الناس إلى الاعتقاد بوجود مدرسة كاملة، فقد أوضحنا الخصائص الرئيسية التي تميز المدرسة الأمريكية الحديثة.

كما أوضحنا أن هذه الخصائص تتسع وتتطور عامًا بعد عام في المدارس المتطورة، ومع ذلك فلا يزال لدينا عمل كثير لأن أحسن المدارس في الوقت الحاضر تقف في منتصف الطريق بين مدارس عام ١٩٠٠ وأفضل نوع من المدارس يمكن أن يظهر في عام ١٩٧٥–هذه المدارس التي ستكون المكان الذي يندر أن يضيع فيه على النشء فرصته، والذي ستتوافر فيه مجموعة من الخبرات المهمة التي تنمى أفرادًا ذوى كفاءات متنوعة حيوية تساعد على معالجة المشكلات الحديثة في المجتمع المحلى وفي الدولة وفي الوطن وفي العالم.

ولتحقيق هذا، نحتاج إلى أن نستغل هذه القوى التي تساعد على تطوير المدارس بحيث تنتفع انتفاعاً تاماً من المعارف السيكولوجية الحديثة إذ أنه لا توجد مدرسة استخدمت ماعرف عن عملية التعليم استخدامًا فنيًا كاملا.

ويمكننا أن نقوى العوامل التي ناقشناها في الفصل الاسبق لتحقيق هذا الهدف ولكننا نحتاج إلى أن نعرف المزيد عن عملية التعلم.

ونحن في حاجة إلى أبحاث أخرى وإلى أن تستخدم المهرة من الخبراء ذوى الكفاءة العالية، في ميدان التربية، ونحن في حاجة أيضًا إلى مدرسين أكفاء وإلى أعضاء من الشعب ذوى بصيرة يقدرون القوة الكاملة للتربية عند التخطيط في التربية الأمريكية، ونحن في حاجة كذلك إلى أن نعالج مشكلة توفير تربية تناسب حاجات القرن العشرين عن طريق تركيز نفس القوى التي فتتنا بها الذرة، فإذا كان البعض يرى أن طاقة القنبلة الذرية تعتبر من أكثر الأحداث المثيرة في تاريخ الحضارة، فنحن بالتأكيد في حاجة إلى تعبئة قوانا من أجل تحرير إحدى القوى الكبرى التي تحفظنا من الهلاك.

وقد تقدم علم الطبيعة تقدمًا مذهلًا فكثرت معاملة ودعمت تدعيماً طبياً بمجموعة من أفضل العقول في أيامنا، كما خلقت التكنولوجيا الصناعية ما يبدو كمعجزات ظاهرة، وأصبحت معامل الأبحاث والمؤسسات التجريبية أجزاء متكاملة في كل صناعة عظيمة في الولايات المتحدة، وتنفق المؤسسات التجارية الكبرى ومؤسسات التوزيع أموالا طائلة من أجل الإعلان، ودراسة نفسية الجماهير،وتشجيع الأبحاث الخاصة بالرأي العام وبالمشكلات المتصلة بسلوك المستهلك، ولهذا فنحن لا نتردد مهما يكن الثمن في العمل على الوصول إلى الحقائق العلمية التي تؤدي إلى إنتاج أحسن وتوزيع أفضل للبضائع وتوفير الخدمات، والتي تساعدنا على تفهم العالم الذي يحيط بنا فهما أفضل، فيمكننا القيام بمشرع قد يؤدى تنفيذه إلى ضياع ملايين من الدولارات «مثل غرق عدد من السفن مثلا في يوم واحد» من أجل الوصول إلى إجابة عن سؤال علمى.

وبمقارنة هذا بما يحدث في ميدان التربية نجد أن أبحاث هذا الميدان

تقوم على أساس التقشف والتقتير حقاً.

وتعتبر عملية التغيير في مدارسنا، عادة، بطيئة جدًا وذلك بالنسبة للسرعة التي يجب أن تكون عليها لكى تتلائم وتساير ما يوجد في الميادين التي تتقدم بسرعة، سواء ذلك في ميدان العلم، أوالتكنولوجيا أو الشئون العامة أو التجارة، وتستغرق المدارس الأمريكية، على وجه التحديد، خمسين عاماً منذ الوقت الذي يلاحظ فيه الإنسان حاجة معينة عندما يقول «ينبغي أن يعمل شيء ما بالنسبة لهذه الحاجة» حتى الوقت الذي يتم فيه تنفيذ ما يجب أن يعمل لإشباع هذه الحاجة إشباعًا مقبولا ناجحًا، وانتشار هذه الخبرة الناجحة المقبولة في جميع المدارس يستغرق، على وجه التحديد، خمسين سنة أخرى، أي أنه يوجد إذن مائة عام بين ملاحظة حاجة معينة وبين الوقت الذي يتم فيه إشباع هذه الحاجة إشباعاً تاماً، وقد أظهرت دراسات عديدة أن هذا هو ما يحدث بالضبط فقد كانت عمليات التكيف بطيئة جدًا لفقر عناصر التربية وبسبب المناخ الذي نمت فيه التربية الأمريكية وهذه العناصر وذلك المناخ تعتبر حيوية بالنسبة للمدارس المتطورة، ويكفي أن تتطور ما كانت عليه صناعة السيارات ونظام المتاجر الكبيرة ونشر المجلات وسير علم الطب منذ مائة سنة ماضية لكى ندرك ذلك.

ومن بين الحلول هذه المشكلة تأييد الجهود الواسعة التي تدفع ميدان البحث التربوى إلى الأمام، فنحن نحتاج إلى مزيد من المعامل وإلى المزيد من المجالات التجريبية، وتعتبر المدرسة المتطورة الحيثة في حد ذاتها نوعاً من هذه الميادين التجريبية على الرغام من أنها بطبيعة الحال تعتبر أكثر من

ذلك، بل ونحن نحتاج إلى عدد أكبر من المدارس المتطورة، التي تعتبر بمثابة منارات ترشد مدارس أمريكا التي برهنت على أنها تربة مواتية لتطبيق أفضل، وتستطيع المجتمعات المحلية، التي تمول مدارس بطيئة أو مدارس أكثر بطء أو حتى مدارس متخلفة، أن تنمى مدارس حديثة متطورة، وإذا ما استغلت هذه المدارس مواردها وإذا ما عبأت جهودها فنحن نستطيع أن نعبيء مواردنا بطريقة رائعة من أجل دراسة مصدر جديد من مصادر القوة ومن أجل تنمية هذا المصدر وتوسيعه، والتربية تعتبر مصدر من مصادر القوة.

وتعمل المدارس الحديثة المتطورة على تنظيم وتخطيط برامجها وتطبيقها باستمرار، وذلك في ضوء معرفة جديدة وذوق عام مشترك، وخبرة مقومة تقويمًا دقيقًا، فعندما لا تصل التطبيقات إلى ما نتوقعه منها، يمكن لنا تغييرها أو تركها لكى تظهر مكانها تطبيقات أخرى أكثر نجاحًا وذلك في ضوء هذه الخبرة ذاتها، ومع ذلك يندر أن نعتبر الفكرة أو الطريقة التي نتركها تركا كليا فاشلة من جميع الوجوه، إذا أن تركها يدل على وجود طريق أفضل. وتشبه العملية في ذلك العملية التي امتازت بها النماذج التي تحسنت تحسنًا مطردًا متتابعًا في صناعة السيارات.

لا تعتبر هذه تجربة بالمعنى المألوف للكلمة، فإن الزطفال ليسوا حيوانات، ولا يستطيع مدرس ماهر في وقت ما، وهو الشخص الذي يجرب والذي يحسن في طريقته، أن يطبق طريقة تؤذي الطفل من أية ناحية من النواحي –ذلكن الضرر الكبير يصيب الأطفال في المدارس التي لا تتغير.

مشكلة تربوية تتطلب الحل

ويحتمل أن أساليب الهندسة البشرية في وقتنا هذا لن تصبح بالغة الكمال، غير أن المدارس المتطورة، وكذلك الإخصائيين الذين يعملون بها، تهتم اهتمامًا دائمًا بالجوانب الكثيرة للمشكلة، فمن جوانب هذه المشكلة التي لقيت عناية ملحوظة، الجانب الخاص بمشكلات التعلم بالنسبة لأفراد معينين، وقد رأينا كيف أن المدرسة المتطورة تعمل مع جميع الأطفال لأول مرة في التاريخ فقد وسعت مجال خبراتها بحيث تهتم بالفروق الهائلة التي توجد بين الأفراد، ذلك أن هذه المدرسة تصبو إلى الوقت الذي لا يفقد فيه الفرد فرصته لسبب ما سواء أكان هذا السبب يرجع إلى جنسه أو لونه أو عقيدته أو ذكائه أو أصله أو ميله أو حاجته، ومع ذلك قد تخفق أفضل مدرسة في وقتنا، في بعض الأحيان، مع فرد من الأفراد، فهناك حالات تلاميذ تظهر بطاقاتهم أن نسبتهم في الذكاء ١٥٠ [١] أو أعلى من ذلك، وعلى الرغم من أنه من المفروض أنهم ممتازين جدًا في الدراسة القائمة على الكتب، فإنهم لم يستطيعوا أن يتعلموا القراءة بسبب تجمع ظروف خاصة، أما في مدرسة طراز عام ١٩٠٠ كان من الممكن أن يغفل مثل هذا التلميذ ويترك في الطريق ويعرض للإهمال.

أما الآن فإن الإخصائيين يعالجون مثل هذه المشكلات بما يتوافر لهم من موارد وإمكانيات، وعندما يكتشفون حلول هذه المشكلات تكون المدرسة الحديثة المتطورة أول من يتبناها ويضعها موضع الفحص

(١)نسبة الذكاء العمر العقلي/ العمر الزمني

والتجريب.

وقد اكتشفت المدرسة الحديثة، فيما يتصل بنمو الفرد، أنه لا توجد وسيلة أفضل من عقد جلسات فردية للكشف عن الإمكانيات الكاملة لكل فرد، ويمكن لك أن تتحقق من صدق هذا إذا كنت قد تحدث إلى أبيك أو أمك أو إليأحد الكبارالراشدين بأحاديث قلبية صادقة أثناء مراحل نموك، ففي هذه الحالة يصبح الفرد وكأنه تلميذ واحد في فصل واحد، يعمل مع مدرس كفء حول مشكلة هي في أساسها مشكلة هو، وتختلف الحالة هنا عن الحالة التي يكون فهيا الطفل عضواً في فصل يتكون من ثلاثين تلميذاً.

وقد قام البرهان على قيمة هذه العملية مراراً وتكراراً، بالنسبة للتلاميذ ذوى المشكلات السلوكية والذين احتاجوا إلى تجيه مهنى أو الذين اعترضتهم مشكلات تتعلق بالتعليم أو صعوبات في الدراسة، ومع ذلك كله، فإنه ليس من الميسور الانتفاع الكامل بالمناقشات الفردية وذلك لأنها باهظة الثمن من حيث أنها تتطلب على الأقل جزءًا من الوقت يقدم فيه مدرس واحد خدماته لتلميذ واحد.

وهناك جانب آخر من جوانب الهندسة البشرية، قد ينمو في المستقبل نمواً تاماً، وهذا الجانب يتصل بما لدى شعبنا من إمكانيات ابتكارية ثقافية.

فمن الملاحظ أننا نضيع هباء موارد إنسانية بإخفاقنا في استغلالها والتعرف عليها عن طريق التربية – فالمدارس الحيثة تقوم بنشاط ملحوظ

مع النشأ في ميادين الفن، والموسيقى والكتابة، وإذاكانت بعض نواحى العمل في هذه الميادين لم تصل بعد إلى درجة الاتفان فإن لها قيمة جمالية واضحة، وهناك احتمال كبير في أنه إذا أسهم عدد أكبر من هذه المدارس في هذه الميادين، فإن ذلك سيساعد شعبنا على القيام بنهضة ثقافية عظيمة، حقا إن الأطفال في المدارس لم يبدأوا بعد في الابتكار العلمى والتكنولوجى، غير أن الممتازين منهم يستطيعون، عندما يشجع المدرسون المهرة الاتجاه الابتكاري بتوجيههم إياهم أن يقوموا في معامل المدرسة وورشها بعمل ابتكارى يكون بعيدًا عن النقل أو التكرار، ويجب ألا ننسى «في هذا المجال» أن مفتاح الاختراع في التليفزيون قد ظهر على يد صبى عمره تسعة عشر عاماً، وأن مساهمة حديثة في فن طيران الهليكوبتر قد تمت على يد شاب، وأن إديسون قام ببعض اختراعاته الأولى عندما كان صبيا في المدرسة.

ومع أنه شق طريقه وحده فإنه يوجد أناس آخرون مثله امتازواب الذكاء ويستطيعون القيام بمثل هذا العمل، إن تباشير نجاح المدارس الحديثة في تنمية القوى الثقافية والابتكارية الكاملة بين أفراد الشعب، تشير إلى وجود إمكانيات تربوية مهمة تحتاج إلى الاستثمار والتحقيق.

ولم تعالج معظم المدارس بعد مشكلة الصحة بصورة إيجابية واقعية حاسمة، فإن فكرة وجود العقل السليم في الجسم السليم قد تركت للصدف وظهر هذا الإهمال للصحة الجسمية وبرامجها أثناء الحرب بشكل واضح بين الشبان غير اللائقين للتنجيد بسبب سوء حالتهم الصحية، وعلى الرغم من أن المدارس المتطورة قد ذهبت إلى أبعد مما ذهبت إليه

المدارس المتخلفة في تحسين الحالة الجسمانية للنشء وفي توفير بعض أنواع العلاج، فإن ميدان الخدمات الصحية ما يزال متعثرًا ومتخلفًا نتيجة الخلافات والتسويق، وإذا وضع الشعب فكرة «أمريكا ذات الصحة القوية» في أعلى قائمة الأشياء المهمة التي يجب الاهتمام بها، فيجب عليه أن يقدم مساعدته في هذا الميدان.

إن طريقتنا في تنظيم الفصول تعتبر طريقة ميكانيكية أو آلية إلى حد كبير، فنحن نقول بصفة عامة أن الفصول تكتظ بأعداد ضخمة من التلاميذ.

إلا أن حجم الفصل يتوقف على ما يجرى فيه من عمل، ففي مدرسة طراز ١٩٠٠ كان التدريس أساسًا من النوع الجمعي، سواء أكانت الفصول تضم أربعة تلاميذ أو أربعين تلميذاً، فإذا قام المدرس بعمل الأشياء التي وصفناها والتي تميز المدرسة الحديثة، فإن عدد التلاميذ الذين سوف يعمل معهم لابد وأن يكون أصغر من متوسط عدد التلاميذ الذي يوجد الآن في الفصل، وإذا ترك المدرس الطرق القديمة إلى الطرق الحديثة في التدريس ينبغى أن يكون عدد تلاميذ الفصل في البداية أصغر بكثير من العدد الذي يستطيع العمل معه فيما بعد.

غير أنه إذا اختلفت أحجام الفصول وفقا لما يتم فيها من عمل، فجدير بنا أن نترك أفكارنا القديمة الخاصة بإعداد التلاميذ الذين سيتكون منهم الفصل.

فقد كان الفصل يتكون من تلميذ واحد في وقت ما – كما أوضحنا

من قبل – وذلك عندما يكون الطفل في حاجة إلى عناية كاملة من مدرس واحد، ومن هنا قد يتزايد عدد الفصل إلى خمس أو ست يعملون كمجموعة في جهاز علمي معقد، ويصل العدد إلى اثنى عشرة تلميذاً يعملون كمجموعة في بناء دكان.

وقد تتكون المجموعة من اثني عشرة أو ثمانية عشرة تلميذاً يجتمعون حول مائدة للمناقشة وقد تتكون المجموعة من خمس وعشرين تلميذاً يقومون بتمثيلية.

ولكى نعمل تنظيما لهذه المجموعات فإنه ينبغي أن نغير طرق وضع الجدول المدرسي، وينبغي أن يصبح هذا التنظيم مرنا بحيث يناسب الوقت، وهيئة التدريس وتوزيع التلاميذ.

ومن ناحية أخرى هناك بعض الأشياء التي يمكن لنا أن نعلمها لخمسمائة تلميذ أو أكثر يوجدون في فصل واحد، وقد حدث هذا فعلا في البرامج الجمعية التي تظهر في المدرجات، وفي الفترات الدراسية المشتركة، وفي عرض التمثيليات وسماع المحاضرات والأحاديث التي يقوم بإلقائها متكلمون من خارج المدرسة، أي أنه عندما تعرض «قلما» تعليميا صالحا في كمه وكيفه وطبيعته، فإننا نستطيع تعليم بعض الأشياء لخمسمائة تلميذ في ستين دقيقة، وقد يتطلب تعليم هذه الأشياء ست أسابيع إذا قمنا بتعليمها لهؤلاء التلاميذ وهم مقسمين إلى مجموعات تتكون كل مجموعة من ثلاثين تلميذاً، ولا يمكن، بطبيعة الحال، أن تعلم جميع الأشياء بهذه الطريقة، إلا أنه قد يمكن أننعلم مثلا جغرافية أوروبا في بضعة أيام بطريقة

مفيدة بحيث تظل عالقة بالأذهان وذلك عن طريق سلسلة من الوسائل السمعية والبصرية التي نستغلها في الوقت المناسب، وقليل من هذه الفصول ذات العدد الهائل، تسمح للمدرسين بالعمل مع فرد أو مع جماعة عندما يلزم الأمر، ونحن في حاجة إلى المزيد من البحث لنكشف عن هذه الميادين التي يمكن لنا تعليمها بهذه الطريقة الاقتصادية.

وهناك حاجة أيضا إلى المزيد من البحث للوصول إلى طريقة تكوين الإدراك الحسابي، ويحتمل إلى حد كبير أن نستخدم عمليات بصرية وتجريبية لتحقيق هذا الهدف، ويمكن أن يصبح التلاميذ مهرة في التفكير الرياضي وكتابة الحساب، مثل مهاراتهم في الكتابة اللفظية والتفكير فيها وذلك عندما تصبح للرموز الرياضية معنى بالنسبة لهم، مثلها مثل المعانى التي تزمز إليها الكلمة التي نستخدمها في الحياة اليومية، وقد تظهر دراسة اللغات نتيجة هواية مسرحية، بحيث يمكن تعليم القراءة والحديث باللغة الفرنسية أو الروسية في أقل من عام واحد بدل أن يستغرق تعليمها أربعة أعوام أو عامين.

تخطيط جديد للتربية

لابد أن تتغير الأدوات التعليمية تغيرا ملحوظا فإن الفكرة القديمة التي كانت تقول بأن كل ما يحتاجه التلميذ هو أن يعرف مادة يشتمل عليها كتاب واحد لم تعد تناسب مطالب المدارس الحديثة ومدرسيها، ويوجد مدرسون أذكياء أقوياء يفكرون في كتاب يفيد في المستقبل وذلك دون مساعدة كبيرة من جانب الناشرين، فهم يجمعون المقالات والخرائط،

وينظمون المصادر التربوية التي يجدونها في المجتمع المحلى، ويشتركون في جريدة تظهر في «كويبك» مثلا يقرأون فيها الروايات الهزلية باللغة الفرنسية، وقد يحين الوقت الذي يمكن أن ننفق فيه أموالا على المواد المدرسية كما ننفق على مجلة وطنية مصورة وبذلك تأخذ الكتب التي يتداولها النشء قيما جديدة كأدوات للتعليم، ذلك أن الطرق التي تقوم على استثارة الانتباه وإعطاء المعلومات واستغلال حاسة النظر أصبحت معروفة وقد أمكن فعلا إنتاج مئات من المراجع التي تمتاز بالتصوير الجيد بمقارنتها بأي كتاب مدرسي وذلك تحت إشراف الخدمات العسكرية حيث لم توجد الصعوبات الخاصة بالأسعار أو بالجهد المطلوب.

وقد يحين الوقت الذي تصبح فيه المدرسة مشابهة للصورة التي يفكر فيها المربون أي صورة مبسطة لعالمنا الواقعي بحيث تكون المدرسة معدة لتدريب الشباب تدريبا يمكنهم من التعرف على وظائفهم في العالم الواقعى، ويلاحظ أنه عندما كانت الحياة في المجتمع بسيطة لم يكن الشباب في حاجة إلى مثل هذه البيئة المنظمة المنتقاة إذ أنهم كانوا يتعلمون الكثير من المهارات من العالم الواقعى المحيط بهم، أما مدرسة المستقبل فإنها سوف تكون معملا لاختبار واسع لتجريب كل نوع من الاستعداد وسوف تكون بجانب ذلك مورداً للتعلم، أي أنها سوف تكون مورداً للخبرة المباشرة أكثر من كونها برجاً عاجيًا، وسوف تكون مسرحاً كبيراً يجنى منه الأطفال أساليب كثيرة في نواحي النشاط التي يستطيعون القيام بها بجاح كبير في الحياة.

ويتطلب حصر وتنمية القدرات الإنسانية الكثيرة التي توجد لدى

التلاميذ أن تعكس المدارس أفضل العناصر والخبرات التي توفرها المؤسسات التي تقوم بدور تربوى في ثقافتنا: بأن تعرض عن المعروضات كما تفعل المتاحف وأن تشرح المباديء العلمية كما يظهر في المعامل، وأن تعرض المشكلات المدعمة بالأدلة والحقائق كما يظهر على المسرح، ويجب أن تصبح العناصر التربوية التي توجد في المزرعة والمتجر والمصنع والمؤسسة الصناعية جزء من المدرسة التي تكون لها حكومتها الخاصة والتي يدير تلاميذها أعمالها ومرافقها، وعل المدارس أيضا أن تتوسع في تقديم الخدمات في الوقت الحاضر - فتقدم الخدمات التي تقدمها المكتبات والورش والاستويوهات والمعامل والملاعب وأندية الرياضة وحجرات المناقشة، فمن العسير إذن أن تكون المدرسة صالحة إذا ما نظرنا إليها على أنها قطعة محدودة من الأرض، وبما أن الناس قدأصبحوا يشتركون باطراد في تخطيط التربية فإن المدرسة سوف تستخدم إمكانيات المجتمع المحلى استخداما يتزايد على الدوام، كما أن الناس سوف يستخدمون المدرسة استخداما مطردا.

إن التربية التي لها مثل هذه القوة لا يمكن أن تتم في وقت الفراغ كما كان يحدث في المدارس التقليدية فقد كان اليوم المدرسى يعتبر وقت فراغ يخلو فيه الناس من العمل وكان غلق المدرسة في الثالثة بعد الهظر يسمح للنشأ بالذهاب إلى المنزل وكانت أيام السبت، التي تعتبر أيام العطلة، تسمح للنشء بالاستعداد ليوم الأحد فيغسلون قمصانهم ويكوون ملابسهم ويلمعون أحذيتهم وينظفون أحصنتهم، كما كانت أيام الصيف التي تعتبر أيام عطلة تتيح للنشء أن يعملوا في الحقول أيام الحصاد، وقد أدرك

البعض فعلا أن الأشياء التي ينبغي على المدرسة أن تعلمها في الوقت الحاضر تتطلب وقتا أطول من ذلك الوقت الذي كان يناسب مدارس المدينة الصغير في المجتمع الزراعى في القرن التاسع عشر.

إن التخطيط الجديد للتربية سوف ينظم مدرسة تكون جزء من الحياة المستمرة، وسوف يكون اليوم المدرسى طويلا شأنه شأن يوم العمل الذي يعمل فيه أي إنسان، وربما يكون أطول من ذلك وإن كان التلاميذ لا يقضون كل هذا الوقت في المدرسة، وسوف يكون ذلك مناسبا وملائما إذا كان ما يقدم طوال اليوم المدرسى منوعا يشبع حاجات الأطفال النامية الكثيرة، وسوف يستغرق العام المدرسى السنة بأكملها، وستكون أنواع النشاط والخبرات طوال السنة مناسبة للفصول، وقد تأخذ كلمة «تلميذ» مدلولا جديدا عندما تفتح المدرسة أبوابها أمام أي فرد –بغض النظر عن عمره – يرغب في أن يتعلم ويرغب في اتقان مهارة والاستفادة من خدمات المدرسة.

وأخيرا قد تدرك أنه لا يوجد فارق حقيقى بين التربية «الثقافية» والتربية «المهنية»، فإن ثقافة الإنسان قد تفشت وسجلت بواسطة الأدوات التي استعملها كما أن طرق معيشته قد كتبت التاريخ وعلى هذا النحو قد تختفي المعركة التي توجد بين المربين أنصار التربية النظرية الثقافية وأنصار التربية النفعية العملية وذلك عندما توفر المدرسة الجديدة لكل تلميذ الأشياء التي يمكن أن يعملها في ضوء قدراته الخاصة وحاجات المجتمع.

هذه صورة بسيطة للتخطيط الجديد للتربية الذي نلاحظ ابنثاقه وظهوره في

المدارس المتطورة التي تظهر في الوقت الحاضر، وهذه الصورة تشير إلى مدرسة تختلف اختلافا كبيرا عن أية مدرسة توجد اليوم وتشير أيضا إلى مدرسة تعتبر أكثر أهمية بالنسبة لمجتمعنا وسوف توجد هذه المدرسة في المستقبل ولكن إذا وصلنا إليها فينبغي أن نرحب بالتغير فإن حياة الأفراد فيها سوف تكون أكثر خصوبة وسوف نستطيع كأمة مواجهة مشكلاتنا.

الفهرس